وفى حديث عبيد بن عمير ، عن عمرو بن عبسة عن النبى ﷺ أنّ رجلا قال للنبى ﷺ : ما الإسلام ؟ قال : إطعام الطّعام ولين الكلام . قال : فما الإيمان ؟ قال : السّماحة والصبر . فإطعام الطّعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة . وكذلك لين الكلام . وأمّا السّماحة والصبر فخلقان فى النّفس . قال تعالى[1] : «**وتواصوا بالصّبر وتواصوا بالمرحمة**». وهذا أعلى من ذاك وهو أن يكون صبّارا شكورا فيه سماحة بالرّحمة للإنسان ، وصبر على المكاره . وهذا ضد الذى خلق هلوعا ، إذا مسّه الشّرّ جزوعا . وإذا مسّه الخير منوعا . فإنّ ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ولا صبر عند المصيبة .

وتمام الحديث : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . قال : يا رسول الله : أى المؤمنين أكمل إيمانا ؟ قال : أحسنهم خلقا . قال : يا رسول الله أى القتل أشرف ؟ قال : من أريق دمه وعقر جواده . قال : يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟ قال : الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . قال : يا رسول الله : فأى الصّدقة أفضل ؟ قال : جهد المقلّ . قال : يا رسول الله فأى الصّلاة أفضل ؟ قال : طول القنوت . قال : يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟ قال : من هجر السّوء » أ .هـ .

وهذا النص المقتبس وإن كان مائلا إلى الطّول النسبى فإنّ معانيه الجليلة ومراميه وعلاقته ببعض الصّفات الّتى عرضت لها الآية الكريمة كالصّدقة والقنوت ، كل ذلك مبرر لاقتباسه رغم طوله . ويقول ابن تيمية كذلك[2] : « ومن أنفع الأمور فى معرفة دلالة الألفاظ مطلقا ، وخصوص ألفاظ الكتاب والسّنة ، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع النّاس ، من جملتها مسألة الإيمان والإسلام . فإنّ النزاع فى مسماهما أوّل اختلاف وقع . افترقت الأمّة لأجله ، وصاروا مختلفين فى الكتاب والسّنّة ، وكفر بعضهم بعضا ، وقاتل بعضهم بعضا ، كما قد بسطنا هذا فى مواضع أخر » .

وكى يبدو شىء من التكامل والتداخل بين مرتبتى الإسلام والإيمان ، فى الإمكان

---

(١) سورة البلد ١٧

(٢) الإيمان ص ١٦١

أن ننظر إلى أركان الإيمان وعلاقتها بأركان الإسلام . إنّ الرّكن الأوّل من أركان الإيمان هو أن تؤمن بالله . ومعروف أنّ أوّل شقى الشّهادة فى الإسلام هو شهادة ألاّ إله إلاّ الله . وإنّ الرّكن الرّابع من أركان الإيمان المتعلق بالإيمان برسل الله تعالى ، ويدخل فيهم أشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ ، يتضمن الشّقّ الثّانى من شهادة الإسلام . فحينما يقول المسلم : أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، وحينما يشهد المسلم ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، هو يطيع الله تعالى ويطيع رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فى كلّ ما أمرا به ونهيا عنه . وها هو ذا المصطفى ﷺ يبيّن أركان الإسلام . وقد تبيّن أنّها أقرب إلى العمل والممارسة . كما يبين أركان الإيمان . وقد تبيّن أنّها أقرب إلى اعتقاء القلب . حتى إذا انتهى المسلم لله ربّ العالمين إلى مرحلة طاعة الله تعالى مع الخضوع والسّكون والطمأنينة ، وهو ما يعبّر عنه بالقنوت ، وإلى مرحلة خشية الله تعالى مع الحبّ والإكبار ، وهو ما يعبّر عنه بالخشوع ، يكون المسلم لله ربّ العالمين قد بلغ مرحلة الخشوع . وقد عرفنا أنّ هذه الآية الكريمة تحدّثت عن القنوت وعن الخشوع . وها هى ذى الآية الكريمة تسلمنا للقنوت أوّلا . قال تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات** ﴾ يقول ابن كثير[1] : « القنوت هو الطّاعة فى سكون » . ويقول الطبرى[2] : « والقانتين والقانتات لله والمطيعين والمطيعات له فيما أمرهم ونهاهم » . ويقول الزّمخشرى[3] : والقانت : القائم بالطّاعة الدّائم عليها » ويقول القرطبى[4] : « والقانت : العابد المطيع » .

وفى ضوء الفهم من مثل قوله تعالى فى سورة براءة[5] : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيمانا . فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون** ﴾ من كون الإيمان قابلاً للزّيادة وقابلا للنقصان ضمنا ، نستطيع أن نفهم أنّ القنوت وغيره من الطّاعات ، من متعلقات زيادة الإيمان ، وبالتّالى فنحن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣

(٢) تفسير الطبرى ٨/٢٢

(٣) الكشّاف ٥٣٨/٢

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٦٧

(٥) الآية ١٢٤

حبنا نذهب إلى القول بأنّ القنوت من الجائز أن يكمل تدرّج السّياق إلى أعلى ، الّذى لاحظناه ابتداءً فى الاتجاه إلى أعلى أثناء تأخير الإيمان فى الترتيب على الإسلام ، إنّما نريد فى حقيقة الأمر تأكيد التكامل بين هذه الصّفات ، لأنّ القنوت ذاته يصحّ أن يكون دليلاً على زيادة الإيمان ، كما أنّ عدم وجوده يصحّ أن يكون دليلاً على عدم زيادة الإيمان . وعلى الرّغم من التكامل والتّداخل اللذين أشرنا إليهما ، يظلّ مؤشر القنوت فى السّياق متّجها إلى أعلى لدلالته على علوّ الإيمان وزيادته . وقد بيّنت آيات الذّكر الحكيم فى معرض الثّناء ، بعض ملابسات القنوت فى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه . قل هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون.إنّما يتذكر أولو الألباب** ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ **وقالو اتخذ الله ولدا سبحانه.بل له ما فى السماوات والأرض كلّ له قانتون** ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ **وله من فى السّماوات والأرض كلّ له قانتون** ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ **يا مريم اقنتى لربّك واسجدى واركعى مع الرّاكعين** ﴾ وقوله تعالى[5] : « **الصّابرين والصّادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ وقوله تعالى[6] : ﴿ **حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين** ﴾ وقوله تعالى[7] : ﴿ **فالصّالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾ وقوله تعالى[8] : ﴿ **إنّ إبراهيم كان أمّة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** ﴾ وقوله تعالى[9] : ﴿ **عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات** ﴾ ويلاحظ ترتيب هذه الصّفات الثلاث وفق آية سورة الأحزاب . وقوله تعالى[10] : ﴿ **ومريم ابنة عمران الّتى أحصنت فرجها فنفخنا**

---

(١) سورة الزمر ٩
(٢) سورة البقرة ١١٦
(٣) سورة الرّوم ٢٦
(٤) سورة آل عمران ٤٣
(٥) سورة آل عمران ١٧
(٦) سورة البقرة ٢٣٨
(٧) سورة النّساء ٣٤
(٨) سورة النحل ١٢٠
(٩) سورة التحريم ٥
(١٠) سورة التحريم ١٢

فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾. يقول ابن كثير[1] : « فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الإيمان ثمّ القنوت ناشىء عنهما » .

وبعد أن تحدّثت الآية الكريمة عن مجموعة من الصّفات ، تبدو الذّاتية فيها بوضوح ، تمّ التّحوّل إلى مجموعة من الصّفات يبدو فيها بوضوح ، وبشيء من التّوازن كل من الذّاتية الفرديّة ومن إفادة الآخرين منها كثيراً . ويلاحظ هذا ابتداءً في الصّفتين التّاليتين : الصّدقة والصّبر . حقاً إن كلاً من هذه الصفات الّتى أشارت إليها الآية الكريمة ، ينبغى أن تتجاوز الآثار الحسنة فاعلها ، فهذا هو الّذى ينبغى أن يكون من المسلم المؤمن القانت ، وهذا هو الّذى ينبغى أن يكون من المتصدّق الصّابر . وإنّ الّذى نودّ أن نبيّنه هو أن الصّدق يشترط فى بعض جوانبه أن يكون الآخرون قوامه . وأنّ الصّبر يشترط فى بعض جوانبه أن يكون الآخرون قوامه كذلك . أمّا صفات الإسلام والإيمان والقنوت فلا يشترط فى كل منها هذا الشرط . ولا يمتنع أن تنعكس آثارها على الآخرين ، بل ينبغى أن تنعكس تلك الآثار حينما يتحقق وجود أولئك الآخرين .

فمع صفة الصّدق ابتداء . قال تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصادقات** ﴾ وصفةالصّدق هذه ينبغى أن يتّسم بها العبد فى صلته بربّه ابتداءً . فهذه سورة الرّعد مثلا ، فى حديثها عن أولى الألباب تبدأ نعتهم بكونهم يوفون بعهد الله تعالى ولا ينقضون الميثاق . قال تعالى[2] : ﴿ **أفمن يعلم إنّما أنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمى ، إنّما يتذكر أولو الألباب . الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ ومعروف العهد الذى أخذه الله تعالى على الخلائق وهم فى عالم الذر . وقد قال تعالى[3] : ﴿ **وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا-أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ وجاء فى العهد الّذى أخذه الله تعالى على النبيين والمراد أن يأمروا أتباعهم بأن يؤمنوا بمحمّد

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣

(٢) سورة الرّعد ١٩ ، ٢٠

(٣) سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣

ﷺ حينما يبعث . قال تعالى :[1] ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ،قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالو أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ وانظر إلى آية البر أو آية الإيمان فى سورة البقرة وإلى صفتى الصّدق والتقوى اللتين وصف بهما الّذين حققوا أركان الإيمان أو البر . ومن هذه الأركان الإيمان بالنبيين وفى مقدّمتهم محمّد بن عبد الله ﷺ ، الّذى تعتبر طاعته من طاعة الله تعالى . يقول ابن تيمية فى كتاب الإيمان[2] : « إيمانك بسائر الرّسل إقرارك بهم . وإيمانك بمحمّد إقرارك به وتصديقك إيّاه واتباعك ما جاء به » قال تعالى[3] : ﴿ **ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل والسّائلين وفى الرّقاب وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصّابرين فى البأساء والضّرّاء وحين البأس . أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾.

وقد عرفنا أنّ سورة الأحزاب الكريمة قد أثنت على الصّادقين كثيراً ووعدتهم بالثّواب الجزيل وذمت فى المقابل سواهم ووعدتهم بالعذاب الأليم . قال تعالى[4] : ﴿ **ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليما** ﴾ وقال تعالى[5] : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيما** ﴾ وقد عرفنا كذلك أنّ هاتين الآيتين الكريمتين نزلتا على جهة الخصوص فى شهداء أحد ، الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، والّذين جاء فيهم وفى الّذين ينتظرون ما قدر الله تعالى لهم من نصر وشهادة قوله عزّ من قائل[6] : ﴿ **ولا تحسبنّ الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل**

---

(١) سورة آل عمران ٨١

(٢) ص ٢٩٧ وانظر هنا ص ٢٨١ من كتاب الإيمان وص ٣٠١ بشأن علاقة آية البر بالإيمان

(٣) سورة البقرة ١٧٧

(٤) سورة الأحزاب ٨

(٥) سورة الأحزاب ٢٣ ، ٢٤

(٦) سورة آل عمران ١٦٩ - ١٧٥

أحياء عند ربّهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين . الّذين استجابوا لله والرّسول من بعد ما أصابهم القرح.للّذين أحسنوا منهم واتّقوْا أجر عظيم . الّذي قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله.والله ذو فضل عظيم . إنّما ذلكم الشّيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين

وقد جاء فى سورة التّوبة حث للمؤمنين على أن يتقوا الله تعالى ويكونوا مع الصّادقين . قال تعالى[1]: **يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين**.

إنّ صفة الصّدق مِنْ أهمّ الصّفات الّتى يتحلّى بها المسلمون المؤمنون القانتون ، عقيدة وعبادة وسلوكا ومعاملة للآخرين . يقول ابن كثير[2] : « والصّادقين والصّادقات : هذا فى الأقوال ، فإنّ الصّدق خصلة محمودة . ولهذا كان بعض الصّحابة رضى الله عنه لم تجرب عليه كذبة ، لا فى جاهلية ولا فى إسلام . وهو علامة على الإيمان ، كما أنّ الكذب أمارة على النّفاق . ومن صدق نجا . عليكم بالصّدق فإنّ الصّدق يهدى إلى البر . وإنّ البر يهدى إلى الجنة . وإيّاكم والكذب ، فإنّ الكذب يهدى إلى الفجور . وإنّ الفجور يهدى إلى النّار . ولا يزال الرّجل يصدق ويتحرّى الصّدق حتّى يكتب عند الله صدّيقا . ولا يزال الرّجل يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يكتب عند الله كذّابا . والأحاديث فيه كثيرة جدا » .

وواضح أنّ الصّدق فى الأقوال قرين للصّدق فى الأفعال . إنّ المؤمن والمؤمنة صادقا الأقوال والأفعال معاً . وها هى ذى الآية الكريمة تثنى عليهما معاً . يقول الطّبرى[3] : « والصّادقين الله فيما عاهدوه عليه والصّادقات فيه » ويقول الزّمخشرى[4] « والصّادق الّذى يصدق فى نيته وقوله وعمله » . ويقول القرطبى[5]

---

(١) سورة التوبة ١١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣

(٣) تفسير الطبرى ٨/٢٢

(٤) الكشّاف ٥٣٨/٢

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٧

« والصّادق معناه فيما عوهد عليه أن يفى به » .

أمّا الصّفة التّالية فهى صفة الصّبر . قال تعالى : ﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات** ﴾ .

بتدبرنا لآية الإيمان من سورة البقرة[1] الّتى وقفنا عندها أثناء الحديث عن أركان الإيمان وأثناء الحديث عن الصّدق كذلك يتبين أنّها عنيت بالصبر عناية فائقة لدرجة أنّ لفظة الصّابرين بالذات جاءت فى صيغة إعرابية خاصة بها هى صيغة النّصب على المدح أو الاختصاص ولولا ذلك لكانت مرفوعة ، عطفا على « الموفون بعهدهم » قال تعالى : ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصّابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس . أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ ولو أنّنا تدبّرنا الآيات الكريمات من سورة الرّعد الّتى أثنى الله تعالى فيها على أولى الألباب لتبيّنا أنّ صفة الصبر جاء الحديث عنها فى صيغة الزّمن الماضى بينما الحديث فيما سبقها من صفات كان فى الزّمن المضارع . هذا إلى أن الملائكة حينما تدخل فى الجنّة من كل باب على المتقين وتسلّم عليهم تعيّن السّبب فى ذلك . منتقية صفة الصّبر دون غيرها من الصّفات والأسباب ، لكون الصّبر عماد كل عمل طيّب صالح . قال تعالى[2] : ﴿ **أفمن يعلم أنّما أنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمى إنّما يتذكر أولو الألباب . الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب . والّذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السّيئة ، أولئك لهم عقبى الدّار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار** » .

وعن ثناء القرآن الكريم على الصّابرين والصّابرات حدّث ولا حرج . ومن ذلك الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . وحينما نتبين أنّ صفة الصّدق السّابقة تشمل

---

(١) الآية ١٧٧

(٢) سورة الرّعد ١٩ - ٢٤

العديد من الميادين بما فى ذلك ميدان الجهاد فى سبيل الله تعالى، على نحو ما أثنت السّورة الكريمة على شهداء أحد السّعداء ناعتة لهم بأنهم صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، وأنّ صفة الصّدق هذه لا تتحقق دون الصّبر على الشّدائد ودون إرغام النفس على ما تكره ، على حدّ قول عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه شهيد مؤتة وقد استعصت عليه النّفس أوّل الأمر بعض الشّىء فخاطبها قائلا :

أقسمت يا نفس لتنزلنّه
طائعة أو فلتكرهنـه
إذا أجلب النّاس وشدّوا الرّنّة[1]
مالى أراك تكرهين الجنّـة
وطالما قد كنت مطمئنة
هل أنت إلاّ نطفة فى شنّـه[2]

وقال أيضاً :

يا نفس إلاّ تقتلى تموتى
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنّيت فقد أعطيت
إن تفعلى فِعْلهما هديت
أو تبتلي فطالما عوفيت
وإن تأخرت فقد شقيت

وهذا الموقف يصادفه عادة أعظم الشجعان . فقد صادفه عمرو بن الاطنابة الفارس الخزرجى والشّاعر الجاهلىّ الّذى يقول :

أبَتْ لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمـد بالثّمن الرّبيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هـامة البطـل المشـيح
وقولى كلما جشأت[3] وجاشـت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

---

(١) أجلب النّاس من الجلبة وهى اختلاط الأصوات . والشدّ : الارتفاع والتقوية والرّنة : والصوت

(٢) النطفة : قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة . والشن وبهاء : القربة الصغيرة

(٣) جشأت : تطلعت ونهضت جزعا وكراهة . وجاشت : غثت أو دارت للغثيان .

ويقول عمرو بن معد يكرب :

فجاشت إلىّ النّفس أوّل مرّة ورُدّت على مكروهها فاستقرت

ويقول قطرى بن الفجاءة المازنى :

أقول لها وقد طارت شعاعا[1] من الأبطال ويحك لن تراعى

ويحدث من كلّ هؤلاء الأبطال الأفذاذ ترويض للنّفس على الصّبر على المكروه[2] .

وقد بينت سورة الأنفال أهمّ شروط انتصار المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، وفى مقدّمتها الصّبر . قال تعالى[3] : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا.إنّ الله مع الصّابرين.ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء النّاس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** » .

وواضح أن حديثنا عن الصّبر من زاوية صبر المجاهدين فى سبيل الله تعالى حين البأس انطلاقا من ثناء السّورة الكريمة على شهداء أحد السّعداء وأمثالهم ، الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، وانطلاقا من عناية آية البرّ فى سورة البقرة بالصّبر فى البأساء والضّرّاء وحين البأس . وكلّ هذه الفئات الثّلاث من واد واحد . ومعروف أنّ الصّبر أنواع ثلاثة . وينبغى أن نفهم هذه الأنواع الثلاثة من إطلاق صفة الصّبر فى القول « **والصابرين والصابرات** » ولابن القيم فى طريق الهجرتين وباب السّعادتين كلام طويل قيّم عن الصّبر بأنواعه الثّلاثة . الصّبر عن المعصية . والصّبر على الطّاعة . والصّبر على البليّة . ونودّ أن نحلّى دراستنا بهذا الكلام القيّم . يقول رحمه الله تعالى[4] : « والكلام على هذا من وجوه : أحدها أن يقال : الصّبر نصف الدّين فإنّ الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر . قال تعالى[5] : ﴿ **إنّ فى ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور** ﴾ وقال النبى ﷺ : والّذى نفسى بيده لا يقضى

---

(١) الشعاع بفتح الشين : تفرق الدم وغيره .

(٢) المعلومات مقتبسة من ديوان عبد الله بن رواحه بتحقيقنا ص ٦٩ - ٧١

(٣) سورة الأنفال ٤٥ - ٤٧

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ٣٤٠ - ٣٤٢

(٥) سورة سبأ ١٩ وسورة لقمان ٣١

قضاء

الله للمؤمن قضاء إلاّ كان خيراً له . إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له . وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له . وليس ذلك إلاّ للمؤمن . فمنازل الإيمان كلّها بين الصّبر والشّكر . والّذى يوضّح هذا :

الوجه الثّانى : أنّ العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بليّة . فإن كان فى نعمة ففرضها الشّكر والصّبر ، أمّا الشّكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها . وأمّا الصّبر فعن مباشرة الأسباب الّتى تسلبها ، وعلى القيام بالأسباب الّتى تحفظها فهو أحوج إلى الصّبر فيها من حاجة المبتلى . ومن هنا يعلم سرّ مسألة الغنى الشّاكر والفقير الصّابر . وأنّ كلاً منهما محتاج إلى الشكر والصّبر . وأنّه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير . كما قد يكون شكر الفقير أكمل . فأفضلهما أعظمهما شكراً وصبرا . فإنّ فضل أحدهما فى ذلك فضل صاحبه . فالشّكر مستلزم للصّبر لا يتم إلاّ به . والصّبر مستلزم للشّكر لا يتم إلاّ به . فمتى ذهب الشّكر ذهب الصّبر . ومتى ذهب الصّبر ذهب الشّكر . وإن كان فى بلية ففرضها الصّبر والشكر أيضاً . أمّا الصّبر فظاهر . وأمّا الشّكر فللقيام بحق الله عليه فى تلك البلية فإن لله على العبد عبودية فى البلاء ، كما له عليه عبوديّة فى النعماء وعليه أن يقوم بعبوديته فى هذا وهذا . فعلم أنّه لا انفكاك له عن الصّبر مادام سائراً إلى الله .

الوجه الثّالث : أنّ الصّبر ثلاثة أقسام . إمّا صبر عن المعصية فلا يرتكبها . وإمّا صبر على الطّاعة حتّى يؤديها . وإمّا صبر على البليّة فلا يشكو ربّه فيها . وإذا كان العبد لابد له من واحد من هذه الثلاث فالصبر لازم له أبداً ، لا خروج له عنه البتة .

الوجه الرّابع : أنّ الله سبحانه ذكر الصّبر فى كتابه فى نحو تسعين موضعا : فمرّة أمر به . ومرّة أثنى على أهله . ومرّة أمر نبيّه ﷺ أن يبشر أهله . ومرّة جعله شرطا فى حصول النّصر والكفاية . ومرّة أخبر أنّه مع أهله ، وأثنى به على صفوته من العالمين . وهم أنبياؤه ورسله . فقال عن نبيّه أيوب[1] : ﴿ **إنّا وجدناه صابرا نعم العبد إنّه أوّاب** ﴾ . وقال لخاتم أنبيائه ورسله[2] : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من**

---

(١) سورة ص ٤٤

(٢) سورة الأحقاف ٣٥

الرّسل ﷺ . وقال[1] : ﴿ واصبر وما صبرك إلاّ بالله ﴾ وقال يوسف الصّدّيق وقد قال له إخوته[2] : ﴿ ائنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا . إنّه من يتق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ وهذا يدلّ على أنّ الصّبر من أجلّ مقامات الإيمان ، وأنّ أخصّ النّاس بالله أولاهم به أشدُّهم قياما وتحققا به وأنّ الخاصّة أحوج إليه من العامّة .

الوجه الخامس : أنّ الصّبر سبب فى حصول كل كمال . فأكمل الخلق أصبرهم . ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلاّ من ضعف صبره . فإنّ كمال العبد بالعزيمة والثبات . فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص ومن كانت له عزيمة ولكن لاثبات له عليها فهو ناقص ، فاذا انضم الثّبات إلى العزيمة أثمر كلّ مقام شريف، وحال كامل . ولهذا فى دعاء النبى ﷺ الّذى رواه الإمام أحمد وابن حبّان فى صحيحه : اللهم إنّى أسألك الثبات فى الأمر . والعزيمة على الرُّشد . ومعلوم أنّ شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلاّ على ساق الصّبر. فلو علم العبد الكنز الّذى تحت هذه الأحرف الثلاثة ، أعنى اسم « الصبر » لما تخلف عنه.قال النبى ﷺ : ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصّبر . وقال عمر بن الخطّاب حين غشى عليه: أدركناه يالصبر » .

ويقول ابن كثير[3] : « والصّابرين والصّابرات . هذه سجيّة الأثبات . وهى الصّبر على المصائب والعلم بأنّ المقدّر كائن لا محاله وتلقى ذلك بالصّبر والثّبات ، وإنما الصّبر عند الصّدمة الأولى ، أى أصعبه فى أوّل وهلة ثمّ بعده أسهل منه ، وهو صدق السّجية وثباتها » .

أما الصّفة التالية فهى صفة الخشوع لله تعالى ، وخاصة أثناء إقامة الصّلاة . قال تعالى : ﴿ إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات ﴾ وقد جاء فى الثناء على المؤمنين فى سورة « المؤمنون » قوله تعالى[4] : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الّذين هم فى صلاتهم خاشعون . والّذين هم عن اللغو معرضون . والّذين هم

---

(١) سورة النحل ١٢٧

(٢) سورة يوسف ٩٠

(٣) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣

(٤) سورة المؤمنون ١ – ٤

للزّكاة فاعلون ﴾ وبما أن الخشوع من أهمّ متعلّقات الصّلاة ، فكأنّ فى ذكره ذكراً ضمنيا للصّلاة الّتى سبق وأن أمِر نساؤه ﷺ بأن يقمنها ويؤدّين الزّكاة . وحينما نتبين أن من متعلّقات الخشوع السّكون والطّمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع[1] وهذه المعانى ندركها جيّداً من إطلاق هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على الأرض صفة الخشوع . قال تعالى[2] : **﴿ ومن آياته أنّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت،إنّ الّذى أحياها لمحى الموتى إنّه على كلّ شىء قدير ﴾** فالأرض الميّتة يطلق عليها صفة الخشوع ، وتلك المرتبة من الطمأنينة والسّكينة ، يكاد ينتهى إليها المقبل على الله تعالى بإخلاص وصدق فى صلاته . وحينما نتبين أنّ صفة الخشوع هذه المرتبطة بالصّلاة ، قد ختمت بها مجموعة من الصّفات الذّاتية غالبا ، أو الّتى لها حظها الموفور من الذّاتية والجماعيّة معاً ، يمكن أن نفهم شيئاً من هيمنة الصّلاة على مؤدّيها بخشوع ، إذ إنّها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وتأمره بكلّ خير ومعروف ، ومن ثمّ هو يؤدّى كلّ الفروض والنوافل فى مختلف مجالات العبادة خير الأداء . والحقيقة أنّ صفة الخشوع هذه المرتبطة بالصّلاة والمفرطة فى الذّاتية ، حينما تختم بها مجموعة من الصّفات الّتى عرفنا طبائعها الذّاتية والجماعية ، وتبدأ بها مجموعة من الصّفات الّتى عرفنا طبائعها الذّاتية والجماعيّة وتبدأ بها مجموعة من الصّفات الّتى يغلب عليها الرّوح الجماعيّة بالإضافة إلى إدراكنا لقيمة الخشوع فى الصّلاة ، نستطيع أن ندرك قيمة مرتبة الإحسان الّتى تمثّل المرتبة الثّالثة بعد مرتبتى الإسلام والإيمان . فلا يقتصر الخشوع على الصّلاة وإن كان ارتباطه بها أوضح من غيرها ، إنّما يتجلّى فى كلّ أمور العبادة ، لأنّ صفة الإحسان السّامية ، مطلوب تحققها دائماً وأبداً وتمثل العبد لها باستمرار ، لأنها تمثل درجة فريدة فى بابها ، لأن العبد يعبد الله تعالى كأنّه يراه ، فإن لم يكن العبد يرى بارئه جلّ وعلا ، فإنّه عزّ وجلّ يرى العبد . لذا فإنّ صفة الإحسان هذه الّتى رمز لها بالخشوع فى الصّلاة تعتبر جزءاً لا يمكن أن يتجزأ بحال من الأحوال من عباد الله تعالى المسلمين لله ربّ العالمين المؤمنين المتقين .

وتمثل

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٨/٣

(٢) سورة فصلت ٣٩

إنّ ابن كثير بعد أن بين معنى الخشوع فى تفسيره ، لمح علاقته بمرتبة الإحسان . وها هو ذا يردف التعريف بالقول[1] : والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته . كما فى الحديث : « أعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » وربما كان مفيداً أن نقرّر أنّ مصدر الخشوع ، إضافة إلى الخوف من الله تعالى ومراقبته ، حبُّه جلّ وعلا والرّجاء فى عفوه والطمع فى ثوابه .

إنّ الصّلاة التى تؤدّى خير الأداء ، ومن أهمّ صفاتها الخشوع ، هى العمود الفقرى للنّعوت الّتى يتحلّى بها المسلمون لله ربّ العالمين والمسلمات . وقد تبيّنا أنّها تتوّج بها مجموعة من الصّفات الذاتية والجماعية ، وفى الوقت ذاته مهّد بها للصّفات الجماعيّة وهى الصّدقة والصّوم والعفّة . وتختم هذه الصّفات الثلاث بأعلى القمم ذاتيّة وجماعيّة وهي ذكر الله تعالى ذكراً كثيرا . وذلك على غرار ختم تلك الصّفات السّابقة بأعلى القمم كذلك ، وهى صفة الخشوع فى الصّلاة . قال تعالى : ﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصّدقين والمتصّدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما** ﴾ .

فمع أولى الصّفات الجماعيّة ، بمعنى الّتى ينعكس أثرها على الجماعة بتعدّيها إليهم . أمّا هذه الصّفة فهى صفة التّصّدّق قال تعالى : ﴿ **والمتصّدقين والمتصّدقات** ﴾ إذا كنا لاحظنا بشأن ذكر صفة الخشوع قبل ، ذكرا ضمنيا للصّلاة الّتى هى عماد الدّين لتجلّى الخشوع فيها أكثر من تجليه فى سواها ، فإنّ فى ذكر الصّدقة ذكرا ضمنيا للزّكاة لأنّ كلاً منهما عبادة مالية فى المقام الأوّل تمرّ بالعبد فى طريقها إلى الله تعالى . وإذا كان أزواج المصطفى ﷺ قد أمرن صراحة بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة على التّوالى . قال تعالى : ﴿ **وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة** ﴾ فإنّ فى ذكر كلّ من الخشوع والصّدقة ذكرا ضمنيا للزّكاة . لانّ الصّدقة إذا كانت تقترن بالنفل بأكثر من اقترانها بالفرض ، فإن المفهوم ضمنا أن من يؤدّى الصّدقة تطوّعا يؤدى الزّكاة فَرْضا ، لأن الفروض والواجبات مقدّمة على النّوافل . ثمّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٨

إنّ كلاً من الزّكاة والصّدقة يؤديان إلى غاية واحدة هى زكاة النّفس وتطهيرها من داء البخل والشحّ . وبهذا ينزل إلى الفقير الغنى الّذى تخلص من داء البخل والشحّ والكبر والجشع والطمع ويرتفع إلى الغنى الفقير الّذى تخلص من داء الحسد والبغضاء وتربص الدّوائر بالغنى . وقد جاء دليلاً على ثمرة الصّدقة والزّكاة الواحدة قوله تعالى[1] : **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم والله سميع عليم . ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصّدقات وأنّ الله هو التواب الرّحيم﴾**.

« الصّدقة هى الإحسان إلى النّاس المحاويج الضعفاء الّذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحسانا إلى خلقه . وقد ثبت فى الصّحيحين : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلّ إلاّ ظله . فذكر منهم : ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله بما تنفق يمينه . وفى الحديث الآخر : والصّدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النّار »[2] .

وانظر إلى ما يقول ابن تيمية فى هذا الشّأن بقصد أن يحرص المسلمون لله ربّ العالمين على أعلى درجات العبادات فى كلّ المجالات بما فيها مجال الصّدقة ، منطلقا رحمه الله تعالى من حديث جبريل عليه السّلام فى تعليم المسلمين أمور دينهم يقول[3] : « وكذلك الإيمان والإسلام . وقد كان معنى ذلك عندهم (أى الصّحابة) من أظهر الأمور . وإنّما سأل جبريل ﷺ عن ذلك وهم يسمعون وقال: هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم، ليبين لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها الّتى ينبغى أن تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمّياتها . وهذا كما فى الحديث الصّحيح أنّه قال : ليس المسكين هذا الطّوّاف الّذى تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان . ولكنّ المسكين الّذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفْطَن له فيُتَصدَّق عليه ، ولا يسأل النّاس إلحافا[4] فهم كانوا يعرفون المسكين وأنّه المحتاج . وكان ذلك مشهوداً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسّؤال ، فيبيّن النبى ﷺ أنّ الّذى يظهر حاجته بالسّؤال

(١) سورة التوبة ١٠٣ ، ١٠٤
(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٨/٣
(٣) الإيمان ص ٢٨٦
(٤) متفق عليه .

والنّاس يعطونه تزول مسكنته بإعطاء النّاس له . والسّؤال له بمنزلة الحرفة . وهو وإن كان مسكينا يستحقّ من الزّكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته . فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا . وإنما المسكين المحتاج الّذى لا يسأل ولا يعرف فيُعْطى . فهذا هو الّذى يجب أن يقدَّم فى العطاء فإنّه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله » .

وليس بخاف علاقة الحديث النبوى الشريف بقوله تعالى من سورة البقرة[1] **﴿ ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدى من يشاء . وما تنفقوا من خير فلانفُسكُمْ ، وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يُوف إليكم وأنتم لا تظلمون.للفقراء الّذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون النّاس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم . الّذين ينفقون أموالهم بالليل والنّهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾** .

وقد أفاضت الآيات الكريمات السّابقات من سورة البقرة فى الحديث عن الصّدقات وفى الحثّ عليها والتنبيه إلى عظيم ثوابها وطرائق أدائها وخير أنواعها . قال تعالى[2] : **﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلة مائة حبّة . والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يا أيُّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالّذى ينفق ماله رئاء النّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صَلْدا لا يقدرون على شىء ممّا كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير . أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثمرات وأصابه الكبر وله ذرّية ضعفاء**

---

(١) الآيات ٢٧٢ - ٢٧٤

(٢) سورة البقرة ٢٦١ - ٢٧١

فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومّما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غنى حميد . الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولو الألباب . وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه وما للظالمين من أنصار . إن تبدوا الصّدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾ :

وبقدر ثناء الآيات الكريمات على الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى فى مختلف أوجه البرّ ابتداءً بالزكاة كان تقريع الآيات الكريمات بعد ذلك للذين يتعاملون بالرّبا . ويكفى دليلا على ضخامة ذنب المرابى أنّ ربّ العزّة أعلن فى محكم كتابه حرب الله تعالى وحرب رسوله الكريم على فئة واحدة فقط من مرتكبى كبائر الذّنوب ، دون غيرها من الفئات . وهذه الفئة هي فئة المرابين . وحينما يرشد إلى البديل الصّحيح عن الرّبا ، يكون خير بديل هو الصّدقة الّتى نحن بصددها من آية سورة الأحزاب الكريمة . قال تعالى[1] ﴿ الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الّذى يتخبطه الشّيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الرّبا وأحل الله البيع وحرّم الرّبا ، فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . يمحق الله الرّبا ويربى الصّدقات . والله لا يحبّ كل كفار أثيم . إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ياأيُّها الّذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثمّ توفى كل نفس ما كسبت وهم

(١) سورة البقرة ٢٧٥ - ٢٨١

لا يظلمون ﴾ .

إنّ روعة النّظم القرآنى وشمول عرضه ونفاذه إلى أعماق النفس الإنسانية الّتى يشبعها بجميل مبانيه ، وولوجه إلى أبعاد الفكر الإنسانى الّذى يرضيه بجليل مراميه ، كل ذلك حملنا على أن ندونّ هذه الآيات الكريمات والدّرر الغاليات من سورة البقرة الكريمة ، فى مجال الحث على الصّدقة والزّكاة والترفّع عن رجس الرّبا وآثامه . نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لكل ما يحب ويرضى وأن يلهمَ المسلمين رشدهم وأن يوفقهم للتخلص من رجس الرّبا علّ الله سبحانه وتعالى يرحمهم فيتفضل عليهم برفع الحرب التى كانوا هم السّبب فى إعلانها عليهم بارتكابهم هذا المحظور ، فإنّهم جميعاً أضعف وأعجز وأذل وأحقر من أن يعلن الله تعالى ورسوله الكريم الحرب عليهم . قال عزّ من قائل[1] : **﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله.إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال ﴾** وقال تعالى : **﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾** .

وإن الصفة اللازمة المتعدّية التّالية هى صفة الصّوم . قال تعالى : **﴿ والصائمين والصّائمات ﴾** . من المعروف أنّ للصيام فوائد كثيرة وقد جمعتها سورة البقرة الّتى تحدّثت عن شهر رمضان فى كلمة واحدة جامعة لكلّ الفضائل ، هى كلمة « التقوى » . واللطيف فى الأمر أنّ هذه الحكمة بدىء بها فى الآية الكريمة الأولى وختم بها فى الآية الكريمة الأخيرة . قال تعالى[2] : **﴿ يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾** وقال تعالى[3] : **﴿ كذلك يبين الله آياته للنّاس لعلهم يتقون ﴾** .

---

(١) سورة الرعد ١١

(٢) سورة البقرة ١٨٣

(٣) سورة البقرة ١٨٧

وقد عرفنا أن زوجات المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنات ، قد طلب إليهن أن يتحلين بهذه الصّفة . قال تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا** ﴾ وكأننا ونحن أمام قوله تعالى : ﴿ **والصّائمين والصّائمات** ﴾ بصدد دعوة للتقوى ، لأنها من أهمّ ملابسات الصّيام ، فرضا ونفلا . وإذا كنا تبيّنا أنّ فى القول ﴿ **والخاشعين والخاشعات** ﴾ دعوة إلى الصّلاة لأنّ الخشوع من أهمّ متعلقاتها ، وأن فى القول ﴿ **والمتصّدقين المتصدقات** ﴾ دعوة ضمنية إلى الزكاة . وبهذا يجمع فى نسق بين الصّلاة والزكاة وفق ترتيب أهميتها فإنّ فى ذكر الصّيام فى القول ﴿ **والصّائمين والصّائمات** ﴾ دعوة إلى تطبيق أحد أركان الإسلام الخمسة المتعلق بالصّوم .

وبالإضافة إلى كون الإشادة بالمتصّدقين والمتصّدقات تعنى إشادة بالمزكين والمزكيّات لأنّ من يقوم بالنافلة ، وهى الصّدقة أقرب إلى قيامه بالفرض وهو الزكاة ، نحن نود أن نتبين الحكمة من الجمع بين الصّدقة والصّيام فى نسق ، واختيار الصّدقة بالذّات دون الزّكاة ، وذلك فى القول : ﴿ **والمتصّدقين والمتصّقات والصّائمين والصّائمات** ﴾ إن فى الإمكان إدراك هذه الحكمة من تدبّر هذه الحديث النبوى الشريف . جاء فى صحيح البخارى[1] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنّه قال : « كان النبى ﷺ أجود النّاس بالخير . وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل . وكان جبريل عليه السلام يلقاه كلّ ليلة فى رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبى ﷺ القرآن . فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الرّيح المرسلة » . ونحن نودّ أن نتدبّر القول : « كان أجود بالخير من الرّيح المرسلة » إنّ الصّائم ، الّذى أصبح بفضل الله تعالى قريبا من بارئه جلّ وعلا ، وقد جاءت الإشارة إلى هذا القرب فى ثنايا الحديث عن شهر رمضان فى سورة البقرة قال تعالى[2] : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنّى قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون** ﴾ إن الصّائم يقوم بعون من الله تعالى وفضل بالكثير من أوجه البرّ ، ومنها الصّدقات على وجه الخصوص إذا كان من ذوى اليسار ، لأنّ الصّدقة خلافا للزكاة ، لا ترتبط بفترة زمنية معينة . وإنّ نفس الصّائم

---

(١) ٣٣/٣

(٢) سورة البقرة ١٨٦

التى صفت ورقت ، والتى ذاقت حلاوة الطّاعة ، وألم العطش والجوع ، قد غدت أكثر استعداداً ورغبة فى التقرب إلى الله تعالى بالطّاعات ، وأقدر على تمثل حاجات الفقراء والإحساس بآلامهم وآمالهم ، وهنا لا تملك النفس الّتى تلك صفتها إلاّ أن تتصدّق وتجود بالكثير ممّا تملك ، تأسّيا بالمصطفى ﷺ ، الّذى كان فى رمضان ، وخاصة حين يلقاه جبريل عليه السّلام أجود بالخير من الرّيح المرسلة . وهكذا يتبين أنّ الصّيام ، رغم كونه ذاتى الفائدة أساساً ، إلاّ أنّه جماعى الفائدة حقيقة متعدّيها ، وبخاصة فى مجال الصّدقات . وبهذا يتبين أنّ ذكر الصدقة والصّيام متجاورين فى الآية الكريمة قوة لكلّ منهما . وهذه القوّة من أظهر علامات الترابط بين الصّفتين الذّاتيتين الجماعيّتين اللازمتين المتعديتين فى آن واحد . « وفى الحديث الّذى رواه ابن ماجة : والصّوم زكاة البدن ، أى يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرّديئة طبعا وشرعا . كما قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيّام من كلّ شهر دخل في قوله تعالى: ﴿ **والصّائمين والصّائمات** ﴾[1] قال تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصّائمين والصّائمات** ﴾.

وما هى الصّفة اللازمة المتعدية التى نصّت عليها الآية الكريمة بعد ذلك . إنها صفة العِفّة وحفظ الفرج . قال تعالى :﴿ **والحافظين فروجهم والحافظات** ﴾ وإنّ العلاقة بين الصّيام وبين العفة أوضح من أن نحتاج إلى التنبيه عليها . وقد نصّ على ذلك الحديث النبوى الشّريف . إنّ المصطفى ﷺ يخاطب أصحابه ، الشباب بخاصة ، قائلا : من استطاع الباءة فليتزوج فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصّوم فإنّه له وجاء[2] والمراد بالباءة القدرة على الزّواج ومتطلباته . والوجاء بالكسر والمدّ : رض عروق البيضتين حتى تنفضخ فيكون شبيها بالخصاء . واستعير هنا لتبيين أثر الصّوم فى عفة المرء .

إنّ الصّوم علاج للكثير من الأدواء والآفات . وقد تبيّنا أنّ القرآن الكريم قد جمع

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٨/٣

(٢) صحيح البخارى ٣٤/٣

حكم الصّوم فى لفظة التّقوى . وها هو ذا المصطفى ﷺ يبين أحد مظاهر هذه التقوى،إنّه حفظ الفرج بشأن كلّ من الذّكر والأنثى . ونحن فى غِنًى عن القول إن مسئولية العفة مشتركة بين الفرد والجماعة والدولة والأمة الإسلامية جمعاء .

إنّ واجب الفرد أن يسعى جاهداً كى يكمل نصف دينه بالزّواج الشّرعى . وإنّ واجب الأفراد والجماعة والدّولة أن تعينه على ذلك،وقد قال تعالى[1] : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصّالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم** ﴾ . وفى حالة عدم قدرته على الزّواج العاجل لسبب من الأسباب على الفرد ذكراً وأنثى أن يستعفف حتّى يغنى كلاً منهما الله تعالى من واسع فضله . وقد قال تعالى[2] : ﴿ **وليستعفف الّذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنهم الله من فضله** ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاّ ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن وأو ما ملكت أيمانهن أو التّابعين غير أولى الإربة من الرّجال أو الطّفل الّذين لم يظهروا على عورات النّساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ .

وبقدر ما تكون العفّة مسئولية الفرد هى مسئولية الجماعة ممثلة فى الأسرة والمجتمع والدّولة والأمّة . إنّ حماية الأفراد والمجتمع من كلّ أذى وإنّ إزالة كلّ المغريات بالفاحشة مسئولية جماعيّة يشترك فيها الكبير والصغير الرّئيس والمرءوس والحاكم والمحكوم ، الذّكر والأنثى . وقد قال المصطفى ﷺ : كلّكم راع وكلكم مسئول عن رعيّته . وقال تعالى[4] : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والّذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم**

---

(١) سورة النور ٣٢
(٢) سورة النور ٣٣
(٣) سورة النور ٣٠ ، ٣١
(٤) سورة المؤمنون ١ - ٧

لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾.

ونحن فى غنى عن الإشارة إلى النّهى الشّديد للمؤمنين عن ارتكاب جريمة الزّنى ، وما الّذى يمكن أن يقال عنها أكثر من كون القرآن الكريم فى غير ما موضع قرن بينها وبين قتل النفس التى حرم الله تعالى قتلها إلا بالحق . جاء مثلا فى سورة الإسراء[1] قوله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم إنّ قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلاّ بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يُسْرِف فى القتل إنّه كان منصورا ﴾** . وجاء فى سورة الفرقان[2] فى صفات عباد الرّحمن قوله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس الّتى حرم الله إلاّ بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ﴾**.

وسبق أن لاحظنا أنّ نساء النّبىّ ﷺ وهنّ الأسوة الصّالحة للمؤمنات ، دليلا على المنزلة الرّفيعة للعفّة فى الإسلام ، قد جاء فى خطابهن قوله تعالى : ﴿ **يا نساء النّبىّ من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ﴾** وقال تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصّدين والمتصّدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾**.

إن الصّفة الأخيرة هى الّتى جاءت الإشارة إليها فى القول : ﴿ **والذاكرين الله كثيراً والذّاكرات ﴾** وهذه الصّفة التى تختم بها كل الصّفات ، يصحّ اعتبارها عمادها الحقيقى ، لأنها قادرة على أن تتغلغل فيها جميعها ، هذا بالاضافة إلى عظيم فضلها ورفيع منزلتها . أمّا تغلغلها فى كلّ الصّفات السّابقة ومنزلتها ، ففى إمكاننا أن نفهم كلّ ذلك مثلا من هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد . عن رسول الله ﷺ

---

(١) الآيات ٣١ - ٣٣

(٢) الآيات ٦٨ ، ٦٩

قال : إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال ﷺ : أكثرهم لله تعالى ذكراً . قال فأى الصّائمين أكثر أجرا ؟ قال ﷺ : أكثرهم لله عزّ وجلّ ذكرا . ثم ذكر الصّلاة والزّكاة والحج والصّدقة . كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : أكثرهم لله ذكرا . فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنه : ذهب الذّاكرون بكلّ خير . فقال رسول الله ﷺ : أجل[1] وهذه السّورة الكريمة ذاتها حثّت المؤمنين على أن يذكروا الله كثيراً وأن يسبحوه جلّ وعلا بكرة وأصيلا . قال تعالى[2] : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ .

أما وقد تبيّنا علاقة العفّة بالصّيام ، وهما الصفتان السّابقتان على هذه الصّفة الأخيرة ، فإنّا نودّ أن نتبين علاقة هذه الصفة الأخيرة بالصّيام مثلا ، إضافة إلى الحديث الّذى رواه الإمام أحمد . وإلى العلاقة الوثيقة بين شهر رمضان الكريم شهر القرآن العظيم ، وبين ذكر الله تعالى ذكرا كثيراً فيه . اللطيف فى الأمر أنّه تغلغل آيات الصّوم فى سورة البقرة النصّ على كونه جلّ وعلا قريبا من عباده . والمتبادر إلى كلّ ذهن أن من أهمّ صفات هؤلاء العباد أنهم الصّائمون الّذين يؤدّون الصّيام على وجهه ويأخذون حظهم من دروسه العظيمة وفى مقدمتها ذكر الله تعالى ذكرا كثيراً . قال عزّ من قائل[3] : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنّى فإنى قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون** ﴾ .

وثمّة جانب آخر مهمّ ، نودّ أن نبيّن علاقة ذكر الله تعالى به ذكرا كثيراً . ونمهّد لذلك بالإشارة إلى كوننا قد تبيّنا فى الخشوع علاقته الوثيقة بالصّلاة ، وفى الصّدقة علاقتها الوثيقة بالزّكاة . وقد ذكر الصّوم صراحة . وبذلك نحن أمام ثلاثة من أركان الإسلام الأربعة بعد الشّهادتين . فهل يمكن أن نتبيّن علاقة معينة بين ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً وبين الحجّ على جهة الخصوص ؟ إنّا بتحولنا إلى آيات الحجّ فى سورة البقرة نجد هذه العلاقة الوثيقة ، حيث قد جاء الأمر بذكر الله تعالى ذكرا كثيراً مرّات عدّة . قال تعالى[4] : ﴿ **الحجّ معلومات . فمن فرض فيهنّ الحجّ**

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٨

(٢) سورة الأحزاب ٤١ ، ٤٢

(٣) سورة البقرة ١٨٦

(٤) سورة البقرة ١٩٧ - ٢٠٣

فلا رفث ولا فسوق ولاجدال فى الحجّ ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التقوى واتقون يا أولى الألباب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض النّاس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرا . فمن النّاس من يقول ربّنا آتنا فى الدّنيا وما له فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقـول ربنا آتنا فى الدّنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار أولئك لهم نصيب ممّا كسبوا والله سريع الحساب . واذكروا الله فى أيّام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنّكم إليه تحشرون ﴾.

وبما أنّ صفة الإسلام الّتى ابتدأت بها الصّفات تشمل كلّ أركان الإسلام ، ابتداءً بشهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، فكأنّ فى ذكر الخشوع والصّدقة والصّيام وذكر الله تعالى ذكراً كثيراً ، ذكرا ضمنيّا لأركان الإسلام الأربعة الباقية وفق ترتيبها المعروف . إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان وحجّ بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

يقول القرطبى فى تفسيره[1] : « والذّاكر قيل فى أدبار الصّلوات وغدوّا وعشيا وفى المضاجع وعند الانتباه من النّوم .. قال مجاهد : لا يكون ذاكراً لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا . وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كتبا من الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات » .

وما هو ثواب هؤلاء الّذين تلك صفاتهم ؟ قال تعالى :﴿ **أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ أما المغفرة فتشمل كل الذّنوب التى ارتكبوها وقتا من الأوقات ثم تابوا وآمنوا وعملوا عملا صالحاً . وأمّا الأجر العظيم فذلك فضل الله تعالى على عباده المؤمنين ﴿ **والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾[2] ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾[3] وبهذا يتبيّن أنّ أولئك العباد الذّين تلك صفاتهم ، من الجائز أن يتورطوا وقتا من الأوقـات فى

---

(١) ص ٥٢٦٨

(٢) سورة آل عمران ١٥٢

(٣) سورة آل عمران ٧٤

لم الذّنوب بخاصة ، لأنهم ليسوا معصومين وليسوا ملائكة ، وميزتهم أنّهم يتوبون إلى الله تعالى من قريب . وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تبيّن أنّ باب التوبة مفتوح على مصراعيه حتى تطلع الشمس من مغربها كما جاء فى الحديث الصحيح[1] قال تعالى[2] : ﴿ **إنّما التوبة على الله للذين يعملون السّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السّيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما** ﴾. وقال تعالى[3] : ﴿ **قل يا عبادى الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم** ﴾ وجاء فى صفات عباد الرّحمن قوله تعالى[4] : ﴿ **والّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما.يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنّه يتوب إلى الله متابا** » .

إنّ تبديل السّيئات حسنات مظهر من مظاهر الأجر العظيم الّذى يتفضل الله تعالى به يوم القيامة على عباده التائبين العابدين الحامدين السّائحين الرّاكعين السّاجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والحافظين لحدود الله . وكما جاء فى الحديث النبوى الشّريف : إنّ فى الجنّة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى ﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصّدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾.

---

(١) رياض الصّالحين ١٢/١

(٢) سورة النساء ١٧ ، ١٨

(٣) سورة الزّمر ٥٣

(٤) سورة الفرقان ٦٨ - ٧١

(١١)
ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

الآيات ٣٦ ــ ٤٠

هذا القسم من أقسام سورة الأحزاب الكريمة يتكوّن من خمس آيات كريمات . قال تعالى : **﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا . وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه ، فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمرا مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدورا . الّذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله ، وكفى بالله حسيبا . ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكلّ شى عليما ﴾** .

وبين يدى دراستنا المتأملة لآيات هذا القسم نودّ أن ندون بعض الملاحظات بشأنها :

١ ــ إنّ مناسبة نزول الآية الكريمة الأولى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** » هو أنّه ﷺ خطب ابنة عمته ، زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة ، فاستنكفت لشرفها وكونه مولى.وبما أنّ الإسلام إنّما شرع للعتق وعمل بكلّ الوسائل على جعل كلّ عباد الله تعالى أحرارا ، فها هو ذا المصطفى ﷺ يعيد إلى زيد حرّيته الّتى سلبت منه منذ أن سبى صغيرا وعومل معاملة الرّقيق[1] وبما أنّ المؤمنين إخوة

---

(١) انظر مثلا تفسير القرطبى ص ٥٢٧٥ والإصابة ٥٦٣/١ « زيد بن حارثة » .

ولا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلاّ بالتقوى ، فلا مكان لاستنكاف زينب الزواج من زيد لمجرد الحسب والنّسب ، فإنّ الحكمة الإلهية التى تجلت على لسان المصطفى ﷺ وعمله ، أرادت أن تضرب المثل العملىّ على هذه المساواة الحقيقية فى الإسلام ، وأن تقضى كذلك على عادة العرب فى التبنى حينما ينزلون الابن المتبنى منزلة الابن الحقيقى ، حتى فى تحريم زواج متبنيه لزوجته بعد طلاقها منه . وإنّ هذه الآية الكريمة لتبين المطلوب من جنس الشخص المسلم ، ذكراً كان أو أنثى . وفى مقدّمتهم زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها الّتى نزلت عن رفضها توّاً إلى طلب المصطفى ﷺ بأن تقبل زيد بن حارثة لها زوجا ، إذ لا يحق لمؤمن ولا مؤمنة حينما يقضى الله تعالى ورسوله أمراً أن يكون لهم حرية الاختيار الّذى يعنى القبول أو الرّفض . إنّما على كلّ السمّع والطّاعة والامتثال للأوامر وإلاّ كان ذلك عصياناً لله تعالى ولرسوله الكريم وضلالا مبيناً وقد بادرت زينب رضى الله تعالى عنها إلى امتثال أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم . وليس بخاف أنّ السّبب الوحيد الّذى جعل زينب تستنكف عن الزّواج من زيد هو أنها ذات حسب ونسب وتلتقى مع المصطفى ﷺ فى أحد جدوده ، بينما زيد مولى . أماوقد تبيّن لها رضى الله تعالى عنها أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ، فقد بادرت إلى قبول ما رضيه المصطفى ﷺ لها ، بأن تتزوج من زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه .

٢ – وإنّ ثمّة حكمة إلهيه فى حمل زينب الشّريفة ذات الحسب والنّسب على أن تتزوج من زيد بن حارثة حِبّ المصطفى ﷺ ومتبناه ، وهذه الحكمة هى الّتى تتعلق بما جاء فى الآيتين الرّابعة والخامسة من السّورة الكريمة ، من كون الأدعياء ليسوا أبناءً البتة فلا يصحّ فى حقهم شيء واحد ممّا يصح للأولاد من الصّلب . قال تعالى : **﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾** وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يقترن بالوحى القرآنى التنفيذ العملى ، وأن يكون المصطفى ﷺ هو المنفّذ لذلك الحكم السماوىّ كى يتم القضاء الفعلى بالكلية على هذه العادة البغيضة للعرب المتغلغلة فى

أعماق نفوسهم . لقد أوحى الله تعالى للمصطفى ﷺ ، لحكمة سماوية ، بأن يخطب زينب بالذّات ، لزيد مولاه . لقد اقتضت حكمته عز وجلّ التى أوحى بها إلى رسوله ﷺ بأنّ زيداً سيطلق زينب . كما اقتضت حكمته عزّ وجلّ الّتى أوحى بها إلى رسوله ﷺ كذلك ، بأنّ زينب رضى الله تعالى عنها ، ستكون إحدى زوجاته ﷺ وأُمّاً للمؤمنين ، مكافأة لها على امتثال أوامر الله تعالى وأوامر المصطفى ﷺ ، كى تتحقق بزواجه ﷺ حكمة من أسمى حكم تعدّد أزواجه ﷺ ، وهى أن زواجه هو ﷺ من مطلقة متنباه ، يعتبر تبيينا عمليا لما نصّ عليه القرآن الكريم من كون الدّعى ليس ابنا على الإطلاق ، ولا يصح له حق من حقوق الأبناء من الأصلاب . فإذا طلق الدّعى زوجته ، مِنْ حقّ متبنيه أن يتزوجها . هذا ما صرحت به الآية الكريمة فى حقّ المؤمنين قاطبة ، وعلى رأسهم المصطفى ﷺ . وهذا ما صرحت به الآية الكريمة التالية فى حقه ﷺ وحده على جهة الخصوص . قال تعالى : **﴿ فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدروا ﴾** .

٣ – إنّ إيحاء الله تعالى للمصطفى ﷺ بكون زيد بن حارثة سيطلق زينب ، وأنّها ستكون إحدى أمّهات المؤمنين ، أى زوجا له ﷺ ، قد أخفاه المصطفى ﷺ فى نفسه وقد أبداه الله تعالى فى محكم كتابه قرآنا يتلى . ولماذا أخفى المصطفى ﷺ فى نفسه ما أوحى إليه ؟ أخفى فى نفسه ما أوحى إليه لعلمه بأن ذلك كائن لا محالة ، وفى ذلك إبداء عملى للإيحاء . وإنما أخفاه ﷺ فى نفسه ، مع علمه بأنه كائن ، لأنّه خشى ألسنة المنافقين الحداد الّتى كانت تسلق المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ سلقا . لأنهم سيقولون : تزوج محمد مطلقة متبناه مخالفا بذلك كل الأعراف العربية والقوانين الخلقية التى تواضعوا عليها فى الجاهلية ، بينما هى الّتى ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . وإلى ذلك الإخفاء فى النفس من إلهام إليه ، ووحي متعلق به ﷺ وخاصّ به ، من كونه سيتزوج مطلقة متبناه ، وبجمع بين عدد من النّساء فى آن واحد ، وإلى خشيته ﷺ ألسنة المنافقين الحداد تلك الخشية الّتى لا موجب

لها ، ووجوب خشية الله تعالى بالمعنى الصّحيح لمعنى الخشية أشار قوله تعالى : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الّذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيبا** ﴾.

٤ – لقد بينت الآية الكريمة الخامسة فى القسم حقيقة المصطفى ﷺ تجاه رجال المؤمنين قاطبة . إنّه ﷺ ليس أبا أحد من رجالهم ، وفيهم زيد بن حارثة فلم يمتنع عقلا ونقلا زواجه ﷺ من مطلقة رجل لا علاقة بينه وبينه سوى المحبّة الّتى ظهرت فى أعلى صورها فى هيئة التبنى؟ إنّ المصطفى ﷺ ليس أبا أحد من رجال المؤمنين ولكنه رسول الله وخاتم النبيين ، وإنّه ﷺ بالنسبة لزيد وغير زيد أكبر من أب ، فقد نعته الله تعالى بأنّه ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾[1] ولا يمكن للأب أن يكون أكثر من ذلك . وليس كلّ الآباء يتحقق فيهم الحنان فضلا عما وراء ذلك من رأفة ورحمة. وبذلك يكون المصطفى لكلّ المؤمنين بمنزلة الأب المثالى . ومن أوضح الأدلة على هذا هو أن زيد بن حارثة آثر المصطفى ﷺ على والده الحقيقى .

ولم تنعت الآية الكريمة المصطفى ﷺ بكونه رسول الله فقط ، وإنّما نعتته كذلك بكونه خاتم النبيين . ومعروف أنّ كلّ رسول نبى . وليس كلّ نبى رسولا . وحينما تنصّ الآية الكريمة على أنّه ﷺ خاتم النبيين ، فهذا معناه ، من باب الأولى والأحرى ، أنّه خاتم المرسلين لأنّ الباب المؤدّى إلى الرّسالة وهو باب النبوة قد أغلق أساساً . قال تعالى :﴿ **ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكلّ شىء عليما** ﴾

٥ – إذا كانت مكافأة الله تعالى لزينب كفاء امتثالها لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم ﷺ أن أصبحت إحدى أمّهات المؤمنين ، وقد قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم** ﴾ فإنّ زيد بن حارثة ، مقابل انتزاع

---

(١) سورة التوبة ١٢٨

صفة البنوّة لرسول الله ﷺ منه ، قد أكرمه الله تعالى بالعديد من المنن . من أهمّها نعمتان . الأولى نعت القرآن الكريم له بالإيمان والإسلام وذلك فى القول : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ وقد قال تعالى فى محكم كتابه[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ والثانية كون زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه هو الشخص الوحيد من أفراد الأمّة المحمّدية الّذى جاء اسمه بصريح اللفظ فى القرآن الكريم ، فأصبح بذلك قرآنا يُتْلى . قال تعالى : ﴿ فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها ﴾ .

وبعد تسجيل هذه الملاحظات على آيات القسم نتحوّل مستعينين الله تعالى إلى الدّراسة المتأمّلة . فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ إنّ أوّل ما نودّ أن نشير إليه هو مناسبة الآية الكريمة للآية الكريمة السابقة . يقول أبو حيّان[2] : « ومناسبة هذه الآية أنّه لمّا ذكر تلك الأوصاف السّابقة من الإسلام فما بعده عقّب ذلك بما صدر من بعض المسلمين . إذ أشار الرّسول بأمر وقع منهم الإباء له فأنكر عليهم . إذ طاعته عليه السّلام من طاعة الله . وأمره من أمره » .

والخيرة ما يتخير[3] وهى مصدر من تخير على غير قياس كالطيرة من تطيّر[4] .

وما معنى القول ﴿ وما كان لمؤمنة ولا مؤمن ﴾ ؟ ما صحّ لرجل ولا امرأة من المؤمنين[5] ولفظة ما كان وما ينبغى ونحوها ، معناها الحظر والمنع ، فتجىء لحظر الشّىء والحكم بأنّه لا يكون . كما فى هذه الآية . وربّما كان امتناع ذلك الشّىء عقلا كقوله تعالى : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾[6] وربّما كان العلم بامتناعه

---

(١) سورة المائدة ٣
(٢) البحر المحيط ٢٣٣/٧
(٣) الكشّاف ٥٣٩/٢
(٤) البحر المحيط ٢٣٣/٧
(٥) الكشاف ٥٣٩/٢
(٦) سورة النمل ٦٠

شرعا كقوله تعالى[1] : ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثمّ يقول للنّاس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنّه علىٌّ حكيم﴾ وربّما كان فى المندوبات ، كما نقول : ما كان لك يا فلان أن تترك النّوافل . ونحو هذا[3] .

فما هو الأمر الّذى قضاه الله تعالى وقضاه رسول الله ﷺ ؟ ومن هو ذلك الرّجل المؤمن المقصود ، ومن هى تلك المرأة المؤمنة المقصودة فى المقام الأوّل ؟ أمّا الأمر الّذى قضاه الله تعالى ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، فهو أن يتزوج زيد ابن حارثة مولى المصطفى ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب[4] أمّا المقصودان فى المقام الأوّل فهما زينب وأخوها عبد الله[5] عن ابن عبّاس قوله : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً إلى آخر الآية . وذلك أنّ رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاه زيد بن حارثة . فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها فقالت : لست بناكحته . فقال رسول الله ﷺ فانكحيه فقالت : يا رسول الله أؤامر نفسى ؟ فبينما هما يتحدّثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ الآية . قالت قد رضيته لى يا رسول الله منحكا ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قالت : إذا لا أعصى رسول الله ﷺ . قد انكحته نفسى[6] قال الجمهور وابن عبّاس وقتادة ومجاهد وغيرهم : خطب الرّسول لزيد زينب بنت جحش فأبت[7] . عن عكرمة عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسبًا

---

(١) سورة آل عمران ٧٩ وقد أكملنا الآية الكريمة .
(٢) سورة الشّورى ٥١ وقد أكملنا الآية الكريمة .
(٣) تفسير القرطبى ٥٢٦٩
(٤) انظر الكشّاف مثلا ٥٣٩/٢
(٥) الكشّاف ٥٣٩/٢
(٦)انظر تفسير الطبرى ٩/٢٢ وتفسير ابن كثير ٤٨٩/٣
(٧) البحر المحيط ٢٣٣/٧

وكانت امرأة فيها حِدَّة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية كلّها[1] وجاء فى لباب النقول[2] : « أخرج الطّبرانى بسند صحيح عن قتادة قال : خطب النبى ﷺ زينب وهو يريدها لزيد ، فظنت أنّه يريدها لنفسه . فلما علمت أنّه يريدها لزيد أبت فأنزل الله : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** الآية فرضيت وسلّمت » وحينما نزلت الآية الكريمة قال : عبد الله وزينب : « رضينا يا رسول الله »[3]

وبتتبعنا لسير الأحداث ، من الجائز ألاّ نتبيّن لعبد الله بن جحش أخى زينب كبير دور فى تزويج زينب من زيد ، وعليه تكون الآية الكريمة فى القول : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** ﴾ إنّما تضع قاعدة كلية يندرج فى المقام الأوّل تحتها من الرّجال عبد الله بن جحش رضى الله عنه كما يندرج تحتها من النّساء زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها..

لقد قضى الله تعالى أن ينسب الدّعى إلى أبيه ، وفى حالة عدم العلم بالأب هو أخ فى الدّين ومولى . قال تعالى : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ . وبما أنّ عادة التبنّى متغلغلة فى أحشاء المجتمع العربى لدرجة أنّهم يمنعون زواج المتبنّى من مطلقة متبنّاه مع أنّ القاعدة فاسدة الأساس ، وما يُبْنَىَ على الفاسد فاسد . ومع ذلك كان هذا الفهم هو ما يعتقده العرب ويصرّون عليه . فاحتاج الأمر إلى أن يقرن إعلان بطلان ذلك بفعل المصطفى ﷺ . لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون المصطفى ﷺ أحد المتبنّين ، تبنّى زيد بن حارثة[4] مولاه . فكان يقال له زيد بن محمّد، حتّى نزلت آية النّهي عن التّبنّى فى سورة الأحزاب فأصبح يقال له زيد بن حارثة. كما شاءت ارادة الله تعالى أن تقضى على تلك العادة البغيضة للعرب فى تحريم زواج المتبنّى مطلّقة متبنّاه، عن طريق زواج المصطفى ﷺ بمطلقة زيد بن حارثة متبناه سابقا. وقد شاءت ارادة الله تعالى أن يختار المصطفى ﷺ لزيد

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٩/٣

(٢) ص ١٧٤

(٣) الكشّاف ٥٣٩/٢

(٤) انظر ترجمته فى الإصابة ٥٦٣/١ وترجمة أسامة بن زيد ٣١/١

زينب بنت جحش بنت عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب ، وهى من هى حسبًا ونسبًا وشرفا ، كى يضرب المثل الأعلى فى الأخوّة الإسلامية وفى المساواة . إذ المعروف أنّ الإسلام وحده هو الذى شرّع للعتق ولم يشرّع للرّق . وهو وحده الذى رفع من مستوى الرّقيق إلى مستوى البشر بعد أن كان فى كلّ مكان آنذاك فى مستوى الأشياء . وها هو ذا زيد بن حارثة ، مولى المصطفى ﷺ وحِبّه ، وقد أنعم الله تعالى عليه بنعمة الحرّية ، يعود كما كان . وبذلك هو أهل فى الإسلام لأن يتزوج كلّ امرأة تحلّ له زوجا ، لأنّ الإسلام ليس فيه إلاّ المساواة ، وليس فيه التفاضل بغير التقوى . وقد كان رضى الله تعالى عنه أحد المؤمنين حقّاً ، وذلك من فضل الله تعالى عليه . وها هو ذا المصطفى ﷺ يبعثه فى سبع سرايا يؤمّره فيها كلّها . عن عائشة رضى الله تعالى عنها : ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلاّ أمّره عليهم . ولو بقى لاستخلفه[1] وعن سلمة بن الأكوع قال : غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمّره علينا رسول الله ﷺ . أخرجه البخارى[2] وقد اختار المصطفى ﷺ لزيد مولاه ابنة عمته زينب بنت جحش كما عرفنا . يقول القرطبى فى هذا الشأن[3] : « فى هذه الآية دليل بل نصّ فى أنّ الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب . وإنّما تعتبر فى الأديان . خلافا لمالك والشّافعى والمغيرة وسحنون . وذلك أنّ الموالى تزوّجت فى قريش . تزوّج زيد زينب بنت جحش . وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزّبير . وزوّج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة . وتزوّج بلال أخت عبد الرّحمن بن عوف » .

أما وقد تبين التّطبيق العملى الدّال على المساواة الحقيقية فى الإسلام ، فإنّا نودّ أن نبين حرص المصطفى ﷺ أن يكمل دين زينب رضى الله تعالى عنها بأن يكون لها بعل . فالمعروف أن سنها آنذاك تزيد على السّادسة والثلاثين .وهي سن تذهب معها عادة نضارة المرأة وبقية شبابها ، ولا يزيدها مرور الأيام والليالى بعد ذلك إلاّ ذهاب نضارة وبهجة.وقد تجلى حرص المصطفى ﷺ على أن يتمّ زواج هذا المولى الحبّ من زينب ذات الحسب والنّسب ، أن ذهب ﷺ بنفسه إلى زينب فخطبها على زيد .

---

(١) الإصابة ٥٦٤/١

(٢) الإصابة ٥٦٤/١

(٣) تفسير القرطبى ٥٢٦٩

وقد عرفنا أنّها أوّل الأمر قد ظنت أنّه ﷺ يريدها لنفسه ، فلمّا علمت أنّه يريدها لزيد امتنعت أوّل الأمر . وتنزل رضى الله تعالى عنها على أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ وتقبل الزّواج من زيد . وحينما نزلت الآية الكريمة قال عبد الله وزينب[1] : « رضينا يا رسول الله . فأنكحها إيّاه وساق عنه إليها مهرها عشرة دنانير وستين درهما وخماراً وملحفة ودرعا وإزاراً وخمسين مدّا من طعام وثلاثين صاعا من تمر » وتعيش زينب مع زيد زهاء سنة واحدة[2] يتمّ بينهما خلالها ما يتمّ بين الزّوج وزوجه من اتصال كامل وإفضاء من الواحد إلى الآخر ، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة التّالية : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** ﴾ وهكذا يتبين أنّ إرادة الله تعالى وحده لا شريك له ، هى الّتى توجه رسول الله ﷺ وهى الّتى تسير الأمور . فبإيحاء منه جلّ وعلا يخطب النبى ﷺ زينب على مولاه زيد . فقد قضت مشيئة الله تعالى أن تكون زينب زوجة زيد بن حارثة أوّلا . وكما أوحى إليه الله بأن يخطب زينب على زيد ، وبأنّ الزّواج سيتحقق فعلاً ، أوحى إليه بأنّ العشرة بينهما لن تطول ، وأنّ زينب بعد أن يطلقها زيد ستكون ، إكراما من الله تعالى لها وإنعاما كفاء تسليمها لقضائه عزّ وجلّ وامتثالها لأمره ﷺ ، إحدى زوجاته ﷺ أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن أجمعين .

إنّ هذه الآية الكريمة الأولى تشير إلى أنّ كلّ مؤمن ومؤمنة حينما يقضى الله تعالى ورسوله أمرا فلا خيرة لأى منهما ، وإلاّ فإنّهما عاصيان لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ ، ضالان ضلالاً مبينا ، ويستحقان عذاب الآخرة بعد خزى الدّنيا . والآية الكريمة شهادة من الله تعالى على إيمان كلّ من زينب بنت جحش وأخيها عبد الله ، فلم يكن لهما اختيار أمام قضاء الله تعالى وإرادة رسوله ﷺ . فى الحديث : والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعا لما جئت به . ولهذا شدّد فى خلاف ذلك فقال : **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا** . كقوله تعالى[3] : ﴿ **فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[4] .

---

(١) الكشّاف ٢/٥٣٩ وتفسير ابن كثير ٣/٤٩١

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٩١

(٣) سورة النور ٦٣

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٠

وزينب بنت جحش رضى الله عنها كان اسمها برّة فقيل تزكى نفسها فسمّاها النبى ﷺ زينب[1] .

وبعد أن وقع بين زيد وزينب ما ستشير إليه الآية الكريمة التّالية ، وبعد طلاقها من زيد ، تزوّجها رسول الله ﷺ بالمدينة فى سنة خمس من الهجرة . فإذا عرفنا أنها توفيت سنة عشرين من الهجرة وهى بنت ثلاث وخمسين سنة[2] استطعنا أن نفهم أن عمرها رضى الله تعالى عنها حينما تزوّجته ﷺ كانت فى حدود الثّامنة والثلاثين ، وأنّه ﷺ كان فى حدود الثامنة والخمسين . قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا** ﴾ .

وهذه هى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه ، فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا** ﴾.

مكثت زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها عند زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه قريبا من سنة أو فوقها . ثمّ وقع بينهما . فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ[3] فقال : يا رسول الله : إنى أريد أن أفارق صاحبتى . فقال : أرابك منها شىء . قال : لا والله ، ولكنّها تعظم علىّ لشرفها وتؤذينى بلسانها فقال : أمسك عليك زوجك[4] وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ هذه الآية : وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، نزلت فى شأن زينب ابنة جحش وزيد بن حارثة[5] .

والخطاب فى القول : « وإذ تقول » للمصطفى ﷺ . فهو الّذى قال لزيد رضى الله تعالى عنه أمسك عليك زوجك واتق الله وبمَ أنعم الله تعالى على زيد ؟ وبم أنعم

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٧٤ وتفسير القرطبى ص ٥٢٤٧

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٧ و ٥٢٤٨

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٩١

(٤) البحر المحيط ٧/٢٣٤

(٥) صحيح البخارى ٦/١٤٧

عليه المصطفى ﷺ ؟ أنعم الله تعالى على زيد بأن هداه للإسلام وحبب إليه الإيمان وزينه فى قلبه وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان . وهو من أوّل من أسلم من الموالى . « قال ابن إسحاق : ثمّ أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى بن امرىء القيس الكلبى مولى رسول الله ﷺ . وكان أوّل ذكر أسلم وصلّى بعد على بن أبى طالب »[1] وأنعم عليه المصطفى ﷺ بنعمة الحرّية بعد أن كان مسترقا . فقد زارت سُعْدى أم زيد بن حارثة قومها وزيد معها . فأغارت خيل لبنى القين بن جسر فى الجاهلية على أبيات بنى معن : فاحتملوا زيداً وهو غلام يفعة[2] فأتوا به فى سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم . فلما تزوّجها رسول الله ﷺ وهبته له[3] وعلم أبوه وعمه بمكانه ، « فخرج حارثة وكعب أخوه بفدائه ، فقدما مكة ، فسألا عن النبى ﷺ فقيل هو فى المسجد فدخلا عليه فقالا : يا ابن عبد المطلب يا ابن سيّد قومه . أنتم أهل حرم الله . تفكون العانى وتطعمون الأسير . جئناك فى ولدنا عبدك فامنن علينا وأحسن فى فدائه فإنّا سندفع لك . قال : وماذاك ؟ قالوا زيد بن حارثة فقال : أو غير ذلك . أدعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالّذى أختار على من اختارنى فداء . قالوا زدتنا على النّصّف . فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . هذا أبى وهذا عمى . قال : فإنّا من قد علمت . وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالّذى أختار عليك أحداً . أنت منى بمكان الأب والعمّ . فقالا : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرّية ؟ وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك ؟ قال : نعم . إنّى قد رأيت من هذا الرّجل شيئاً ما أنا بالّذى أختار عليه أحداً . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال : اشهدوا أنّ زيداً ابنى يرثنى وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمّه طابت أنفسهما وانصرفا فدعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام »[4] .

حقّاً إنّ نعمة الإيمان من الله تعالى هي الكبرى ولهذا تقدمت . وكى نتبين شيئاً

---

(١) السيرة النبوية ٢٦٥/١

(٢) اليفعة الغلام إذا ترعرع وناهز البلوغ . يقال أيفع الغلام .

(٣) الإصابة ٥٦٣/١

(٤) الإصابة ٥٦٣/١ وانظر السيرة النبوية ٢٦٥/١ - ٢٦٧

من قيمة هذه النعمة الكبرى على زيد بن حارثة فى إمكاننا أن نتدبّر هذه المِنّة من الله تعالى على زيد . وهذه الشّهادة من الله تعالى له . إن لفظة الإنعام إنّما تأتى فى القرآن الكريم كفاء نعمة الهداية إلى الله تعالى ، وليس لهذه النعمة نظير . جاء فى سورة النسّاء[1] قوله تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّدقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما** ﴾ وجاء فى سورة مريم بعد ذكر طائفة المنعم عليهم وهم زكريا ويحيى ومريم ابنة عمران وعيسى ابن مريم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس قوله تعالى[2] : ﴿ **أولئك الّذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرّية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرّية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تُتلى عليهم آيات الرّحمن خروا سجّدا وبكيّا** ﴾ جاء فى تفسير القرطبى من كلام السّهيلى[3] : « وزاد فى الآية أن قال : وإذ تقول للذى أنعم الله عليه أى بالإيمان . فدلّ على أنه من أهل الجنة . علم ذلك قبل أن يموت . وهذه فضيلة أخرى » . فما هى الفضيلة الأولى التى نصّ عليها السّهيلى ؟ « قال الإمام أبو القاسم عبد الرّحمن السهيلى رضى الله عنه : كان يقال : زيد بن محمّد حتى نزل : ادعوهم لآبائهم . فقال : أنا زيد بن حارثة . وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمّد . فلمّا نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه الله بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحداً من أصحاب النبى ﷺ وهى أنه سمّاه فى القرآن فقال تعالى : ﴿ **فلمّا قضى زيد منها وطرا** ﴾ يعنى من زينب . ومن ذكره الله تعالى باسمه فى الذّكر الحكيم حتّى صار قرآنا يُتْلى فى المحاريب ، نوّه به غاية التنوية ، فكان فى هذا تأنيس له ، عِوض من الفخر بأبوّة محمّد ﷺ . ألا ترى إلى قول أُبىّ بن كعب حين قال له النبى ﷺ : إنّ الله أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا فبكى وقال : أو ذكرت هنالك ؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أنّ الله تعالى ذكره فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى مخلّدا لا يبيد ، يتلوه أهل الدنيا إذا قرأوا القرآن ، وأهل الجنّة كذلك أبدا ، لا يزال على ألسنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكوراً

---

(١) الآية ٦٩ ، ٧٠

(٢) سورة مريم ٥٨

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٦

على الخصوص عند ربّ العالمين . إذ القرآن كلام الله القديم . وهو باق لايبيد . فاسم زيد هذا فى الصحف المكرّمة ، المرفوعة المطهّرة ، تذكره فى التّلاوة السفرة ، الكرام البررة . وليس ذلك الاسم من أسماء المؤمنين إلاّ لنبى من الأنبياء ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى مِمّا نزع عنه »[1] .

لقد ذهب جمهور العلماء إلى كون الإنعام من الله تعالى على زيد نعمة الإسلام وكون المراد بالإنعام من الرّسول ﷺ عليه نعمة العتق[2] يقول مثلا ابن كثير[3] : « يقـول تعـالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنّه قال لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وهو الّذى أنعم الله عليه ، أى بالإسلام ومتابعة الرّسول ﷺ . وأنعمت عليه أى بالعتق من الرّق ، وكان سيّدا كبير الشّأن جليل القدر حبيباً إلى النبى ﷺ ، يقال له الحِبّ . ويقال لابنه أسامة الحِبّ ابن الحِبّ . قالت عائشة رضى الله عنها . ما بعثه رسول الله ﷺ فى سريّة إلاّ أمّره عليهم . ولو عاش بعده لاستخلفه رواه الإمام أحمد » .

وإنّ جمع الآية الكريمة بين الإنعامين فى نسق ، بين الإنعام بالإسلام وتحقيق الهدف الّذى من أجله خلق الله تعالى الخلق ، وبين الإنعام بالحرّيّة ، يُعْتَبَرُ دليلاً من أكبر الأدلة على قيمة الحرّيّة فى الإسلام وتقنين الإسلام من أجل القضاء على الرّق والتخلص منه بالكلية . إن الإسلام قنن من أجل التخلص من الرّق وفتح كلّ الأبواب الّتى تؤدىّ إليه وسدّ كلّ المنافذ الّتى يأتى منها ، إلاّ باباً واحداً يصحّ فتحه وبقاؤه مفتوحاً إذا أراد خصوم الإسلام ذلك بأن يسترقوا أسرى المسلمين . ففى هذه الحال من حق المسلمين أن يعاملوهم بالمثل بأن يسترقوا أسرى الكافرين على غرار استرقاق الكافرين لأسراهم . حينما جاء الإسلام كان الاسترقاق قانونا عالميّا وكان الأرقاء ينزلون منزلة الأشياء لا البشر . وحينما جاء الإسلام شرّع من أجل التخلص من الرّق والقضاء عليه بالكلية وقد نجح الإسلام وفق منهجه الحكيم كلّ النجاح بدليل أنك الآن لا تجد مسترقا واحداً فى كلّ ديار الإسلام بينما يوجد فى العالم غير الإسلامى ملايين الأرقاء حقيقة من الملوّنين ، وإن كانوا فى ظاهر الأمر أحراراً .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٦

(٢) انظر هنا مثلا البحر المحيط ٢٣٤/٧ والكشّاف ٥٣٩/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٧٠

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٠/٣

ويكفى أن نشير إلى مثل واحد فقط ، هو حقيقة وضع زهاء الثلاثين مليونا من الزّنوج فى أمريكا. إنهم فى الظّاهر ليسوا أرقاء ولكنهم فى الحقيقة أرقاء ونكتفى بالإشارة إلى مناسبة واحدة يتجلى فيها ذلك الرّق بوضوح ، أمّا مكان هذه المناسبة وزمنها فهو الكنيسة الّتى يفترض أنها بيت من بيوت الله ينبغى أن تتمّ فيه على أقل تقدير المساواة ولو فى الشكل بين الأبيض والأسود . وإنّ هذه المساواة فى الشكل ليست موجودة ، فكيف بالمساواة حقيقة وجوهرا . فأنت تجد من الكنائس مالا يسمح فيه بدخول الزّنوج ، ومن الكنائس مالا يسمح للزّنوج أن يكونوا فى الصفوف المتقدمة الّتى تعتبر وقفا على الرجل الأبيض . ويضرب المثل دليلا على هذا الرّق الحقيقى للشخص الملون فى تلك البلاد بالسّاعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد من كلّ أسبوع فى الكنيسة . حيث تعتبر هذه الفترة ممثلة لأبشع صور التفرقة العنصرية وطغيان الرّجل الأبيض وعنجهيته واسترقاقه حقيقة للشخص الزّنجى .

وفى المقابل أودّ أن أدون بعض ما سمعته أذناى ووعاه قلبى وامتلأت به نفسى وعينى من تعابير صدرت عن الدّاعية الأمريكى المسلم من أصل زنجى مالكم إكس وملامح وانفعالات صدرت منه وهو يعبر فى سعادة وانشراح عن المساواة الحقيقية فى الإسلام حينما ألقى علينا فى الصّالة الماليزية بلندن بالقرب من ماربل آرش وقبيل استشهاده بأسابيع قلائل محاضرة عن الإسلام ، تجلّى فيها فرط حماسته رحمه الله تعالى للإسلام الّذى أعلن أنّه سيعمل بإذن الله تعالى على نشره ليس فى أمريكا وأفريقيا فقط ، وإنّما فى الصّين كذلك وما إليها . لقد سجل مالكم إكس فى محاضرته لفتة ذكية بارعة عمّا لاحظه أثناء زيارته للمسجد الحرام وشربه من ماء زمزم . وهى لفتة لا يفطن لها من يتقلب فى نعيم المساواة الإسلامية . إنّما يفطن لها من حرم ظلما وعدوانا هذا الحق . أمّا هذا الأمر الّذى شدّ انتباه مالكم إكس بقوة فهو أنّه حينما كان فى المسجد الحرام شاهد كل أجناس المسلمين أبيضهم وأسودهم وأسمرهم وأصفرهم ، يشربون تباعاً ماء زمزم من كأس واحدة .

إنّ هذا الدّاعية المسلم الّذى حرم قبل أن هداه الله تعالى إلى الإسلام من حقّ المساواة هذا ، ذهل لهذا المظهر الفطرى غير المتكلف للأخوة الإسلامية الحقيقية . مع أن شخصا واحدا من الّذين تقلبوا بفضل الله تعالى منذ نعومة أظفارهم فى نعمة

المساواة الإسلامية لا يأبه فى قليل ولا كثير لشرب مجموعة من الأشخاص ذوى ألوان مختلفة من كأس واحدة ، لأن هذا هو الّذى ينبغى أن يكون ، فلا يجوز فى الإسلام أن يكون سواه . ولهذا ربما عجب القارىء والسّامع لهذه اللفتة من الدّاعية المسلم مالكم إكس رحمه الله تعالى رحمة واسعة . ولكنّ الرّجل كان قد أدرك حقا قيمتها لأن غير الأبيض يعامل فى تلك البلاد ومالف لفّها معاملة الرّقيق حقيقة . وإن لم يدون فى شهادة ميلاده أنه رقيق .

وبمناسبة ذكر التفرقة العنصرية الّتى تتجلّى كذلك فى الكنسية وتبلغ أوجها فى الكنيسة كذلك فى تمام السّاعة الحادية عشرة من صباح كلّ أحد ، فى إمكاننا أن نسجّل تجربة أخرى للدّاعية المسلم ذاته مالكم إكس ، دليلاً آخر على المساواة الحقيقية فى الإسلام . وقد حدثت له التجربة هذه المرة فى مدينة جدة . وقد سمعت هذه التجربة من زميل كريم رفيقا لمالكم إكس أثناء تطوافه فى مدينة جدّة . قال هذا الزميل الكريم : كنت برفقه مالكم إكس أثناء تطوافه فى مدينة جدّة . وأدركتنا صلاة المغرب ونحن فى قلب المدينة فاتجهنا إلى أقرب مسجد . وشاءت العناية الإلهية أن يكون إمام المسجد من أصل زنجى . وظن مالكم إكس أنّا تعمّدنا المجىء به إلى هذا المسجد أو أنّنا تعمّدنا المجىء بهذا الإمام إلى ذلك المسجد . وكانت دهشة مالكم إكس عظيمة حينما تأكد أن ذلك الشخص إنما هو إمام ذلك المسجد من زهاء أربعين عاما .

وإنّنا فى أثناء دراستنا لسورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام دراسة متأملة وفى أثناء دراستنا للآية الكريمة الرّابعة منها ، وهى الآية الوحيدة فى القرآن الكريم التى تبين طريقة معاملة المسلمين للأسرى ، قد تحدّثنا فى موضوع الرّق باعتبار الإسلام قد أبقى بابا واحداً جائز الانفتاح للرّق ، وذلك فى حالة إصرار الخصوم على فتحه وذلك باسترقاق أسرى المسلمين . وقد دار حديثنا حول الحقيقة القائمة من كون الإسلام قد شرع للعتق ولم يشرع للرّق . ونكتفى هنا بستجيل موجز لرأى الإسلام فى طرائق معاملة الأسرى ومن بينها الاسترقاق .

ثمة أربع طرق يصحّ للإمام ، مراعاة للمصلحة العامة ، أن يعامل بها أو ببعضها أسرى الكافرين . وقد أشارت الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد عليه الصّلاة

والسّلام إلى أفضل الحالات الأربع ، وهما حالتا المن والفداء مبتدئة بأفضل الحالتين وهى حالة المن على الأسير دون أخذ أى مقابل ، ثمّ إلى المفضول وهو أخذ الفداء أو المقابل . وقد فعل المصطفى ﷺ كلاً من الحالتين ، كما فعل حالتين أخريين لم تشر إليهما الآية الكريمة وهما الاسترقاق والقتل . قال تعالى[1] : ﴿ **فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّا بعد وإمّا فداءا حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم** ﴾ إنّ من حقّ إمام المسلمين ، أسوة بالمصطفى ﷺ أن يفعل واحدة من الحالات الأربع ، حسبما يرى من مصلحة عامة . إذا مَنّ الخصوم على أسرانا منّا على أسراهم . وإذا أخذوا الفداء أخذنا الفداء . وإذا استرقوا أسرانا استرققنا أسراهم . وإذا قتلوا أسرانا قتلنا أسراهم .

وبما أن هذا هو الباب الوحيد الّذى يصحّ أن يفتح ويأتى منه الرّقيق فى الإسلام ، وبما أن هذا الباب المغلق يصحّ أن يفتحه الخصوم باسترقاق أسرانا ، فمعنى هذا أنّ خصوم الإسلام هم المسئولون وحدهم عن وجود الرّق فى الإسلام ، أمّا وراء ذلك فلا رق فى الإسلام ، ثمّ إنّ الإسلام قد شرّع العتق ولم يشرّع للرّق . ومن مظاهر تشريع الإسلام للعتق أنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأحزاب تقرن بين الإنعام من الله تعالى بالهداية إلى الإيمان ، وبين الإنعام من الرّسول الكريم بإعادة الحرّية المسلوبة إلى صاحبها، ممثلة فى عودتها عن طريقه ﷺ إلى زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه . قال تعالى : ﴿ **وإذ تقول للذّى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله** ﴾ .

إنّ هذا هو ما قاله المصطفى ﷺ لزيد بن حارثة كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **أمسك عليك زوجك واتق الله** ﴾ ومن الواضح أنّ ثانى الأمرين اللذين يأمر بهما المصطفى ﷺ زيد بن حارثة مترتب على الأوّل ومبنى عليه . وبعبارة أخرى ، ليس المطلوب من زيد أن يمسك على زينب زوجه كيفما اتفق ، لأنّ المفروض فى العلاقة بين الزّوجين أن تكون قائمة على المودّة والرحمة إنما المطلوب من زيد أن يتقى الله تعالى فى كل أموره ، وفى مقدّمتها معاملته لزوجه زينب جحش رضى الله تعالى

---

(١) سورة محمّد ٤

عنها . وهذا الذى يأمر به المصطفى ﷺ زيدا من تقوى الله تعالى هو عين ما أمر الله تعالى به عبده المصطفى ﷺ فى مطلع السّورة . قال تعالى : ﴿ **يأأيّها النبى اتّق الله** ﴾ وهو عين ما وصى الله تعالى به الأمة المحمّدية وسائر الأمم . جاء فى سورة النّساء قوله تعالى[1] : ﴿ **ولقد وصينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإنّ لله ما فى السماوات وما فى الأرض . وكان الله غنيا حميدا** ﴾ . فالمطلوب من زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه أن يكون إمساكه على زينب رضى الله تعالى عنها قائما على أحسن النعوت التى يمكن أن يتحلى بها عبد من عباد الله تعالى الصّالحين ، تقوى الله تعالى فى السّرّ والعلن .

ونحن فى ضوء عتاب الآية الكريمة للمصطفى ﷺ ، نودّ أن ننظر إلى ما قاله المصطفى ﷺ لزيد رضى الله تعالى عنه الّذى أراد أن يطلق زوجه زينب وقد استحالت العشرة بينهما وقد قال تعالى[2] : ﴿ **وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته . وكان الله واسعاً حكيماً** ﴾ . إنّ الّذى يفهم بداهة ولأوّل وهلة من عتاب الآية الكريمة له ﷺ ، أنه عليه الصّلاة والسّلام تجاوز الفاضل إلى المفضول ، أو تجاوز الأفضل إلى الفاضل . فلننظر إلى هذا الفاضل الّذى بدر منه ﷺ متجاوزاً الأفضل . إنّا لو نظرنا من زاويتنا نحن البشر العاديين إلى ردّ المصطفى ﷺ الرّسول الإنسان على رغبة زيد رضى الله تعالى عنه فى القيام بأبغض الحلال إلى الله تعالى لتبينا فيه أسمى آيات النبل وإخلاص النصيحة والرّغبة الصّادقة فى إصلاح ذات البين . وهل هنالك من ميدان للاجتهاد فى إصلاح ذات البين يتقدم الاجتهاد ، فى إصلاح ذات البين بين زوجين يعتبران اللبنة الحقيقة الأولى فى بناء صرح المجتمع الإسلامى والدّولة الإسلامية ؟ لا بطبيعة الحال . إذن فلتتجه كلّ النوايا الصّادقة المخلصة إلى رأب صدع هذه اللبنة ولمّ شتاتها . وهذا هو ما فعله المصطفى ﷺ الرّسول الإنسان والأسوة الحسنة ، وهذا هو الرّد الّذى ينبغى أن يردّده كل مسلم غيور يستنصح : ﴿ **أمسك عليك زوجك واتق الله** ﴾ « قال النحاس ، قال بعض العلماء ، ليس هذا من النبى ﷺ خطيئة . ألا ترى أنّه لم يؤمر بالتوبة

---

(١) سورة النساء ١٣١

(٢) سورة النساء ١٣٠

ولا بالاستغفار منه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلاّ أنّ غيره أحسن منه . وأخفى ذلك فى نفسه خشية أن يفتتن الناس »[1] .

إن هـذا الّذى صرّح به العلماء من كونه ﷺ قد تجاوز الفاضل إلى المفضول أو تجاوز الأفضل إلى الفاضل ، يحتاج منا إلى شيء من بسط القول . إنّ ردّه ﷺ على زيد رضى الله تعالى عنه ، إذا كان فى حقنا نحن يعتبر قمة المثالية والنبل وسمو النفس ، لأنّه يمثل أسمى ما يمكن أن يصدر من إنسان من قول أو فعل . فإنّ هذا القول فى حقه ﷺ ، وهو هنا بإيحاء منه جلّ وعلا وأمر يقوم بدور المشرع ، يعتبر مفضولا لا فاضلا .

وما هو الأمر الفاضل والأفضل فى حقه ﷺ تجاه رغبة زيد أن يطلق زوجه زينب رضى الله تعالى عنها فى ضوء إيحاء الله تعالى للمصطفى ﷺ بكون زيد رضى الله تعالى عنه سيطلّق زينب رضى الله تعالى عنها وأنها ستكون زوجا له ﷺ لحكمة أرادها الحكيم الخبير، وهى أن يقدّم المصطفى ﷺ التّطبيق العملى على كون الدّعى ليس ابنا حقيقيا مطلقا ، فالعلاقة إذن يبين المتبنى والمتبنى يجب أن تكون من جنس العلاقة بين الشخصين المختلفى النّسب تماماً ، خلافا للعرف الجاهلى الّذى أراد الإسلام القضاء عليه تماماً ، وهو يقضى بإنزال المتبنى منزلة الابن الحقيقى فى كل شيء . وماهى أقوى أنواع الأدلة على كون العلاقة بين المتبنى والمتبنى لا تختلف عن العلاقة بين شخصين متباعدين تماماً ؟ أن يتزوج المتبنّى فعلا مطلقة دعيّه الّتى قضى منها وطره فعلا. بذلك يخرج هذا الدّعى من دائرة البُنوّة الحقيقية . فلا ينطبق فى حقّه مطلقا ما أشارت إليه سورة النّساء أثناء الحديث عن المحرّمات من النّساء وذلك فى قوله تعالى[2] : ﴿ **وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم** ﴾ لأنّ الدّعى ليس ابنا من صلب متبنيه .

إنّ الحكمة الّتى اقتضتها إرادة الحكيم الخبير بأن يقضى قضاءً مبرما عمليا على وهم العرب بإنزال المتبنى منزلة الابن من الصلب بعد القضاء على هذا الوهم نظريا فى سورة الأحزاب الكريمة ، قد أفصح بها للمصطفى ﷺ حينما أوحى الله تعالى له بـأنّ

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٣

(٢) سورة النساء ٢٣

زينب الّتى أوحى الله له ﷺ بأن يخطبها على مولاه زيد بن حارثة ، ستكون إحدى زوجاته ﷺ بعد أن يطلقها زيد . وإنّ المصطفى ﷺ ، النبى الرّسول الإنسان ، بادر إلى تنفيذ ما أوحى إليه من خطبة زينب على مولاه زيد . وحينما بدأت طلائع الجانب الآخر من الإيحاء فى البزوغ ، بأن يتزوّج المصطفى ﷺ زينب مطلقة متبناه ، علم المصطفى ﷺ النبى الرّسول الإنسان أن هذا الزّواج ، الّذى سيتمّ بإرادة الله تعالى حتما ، سيفتح بابا للمنافقين واسعا كى يخوضوا فيه بالكلام غير اللائق ، عن الإسلام ونبى الإسلام ، لاصطدام عادة للعرب بغيضة لا أساس لها من الصّحة مع هذا الأمر الشرعى السماوى ،هذا إلى موقف المنافقين المعروف المناوىء للإسلام عموما . لقد قلنا إنّ ردّ المصطفى ﷺ على زيد من زاويتنا نحن البشر يمثل الرّد المثالى الّذى يتجلى فيه ﷺ الرّسول الأسوة الحسنة . ولكن بما أنّ هذا الرّدّ لا يتمشى مع ما أوحى الله تعالى إليه ﷺ ، من كون زيد سيطلق زينب وكونه ﷺ سيتزوجها ، فقد كان عتاب الله تعالى رسوله ﷺ بأن أخفى فى نفسه ، بقصد اتقاء كلام المنافقين ولو إلى حين ، ما أوحى الله تعالى إليه من كونه ﷺ سيتزوج زينب . وقد أبدى الله تعالى ما أخفاه عليه الصّلاة والسّلام وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** ﴾ كما كان عتاب الله تعالى له ﷺ أن خشى النّاس ، أن يقولوا تزوّج مطلقة متبناه ، بينما الله تعالى هو الأحق أن يخشاه المصطفى ﷺ ، فيقدم دون أدنى التفات إلى البشر ، على ما أوحى الله تعالى به إليه من زواجه بزينب مطلقة زيد متبناه بعد انقضاء عدّتها منه . لأنّ الله تعالى قد رفع عنه ﷺ الحرج فى هذا الزّواج الّذى ميز الله تعالى به الإسلام الحنيف عن الجاهلية الجهلاء . وإن خشية الله تعالى الأولى بأن يتحلى بها المصطفى ﷺ والتى أشير إليها فى قوله تعالى : ﴿ **والله أحق أن تخشاه** ﴾ ، قد بينها قوله تعالى : ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الّذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدورا** ﴾ إنّ القلب يجب أن يمتلىء بنوع واحد من الخشية هو خشية الله تعالى وحده لا شريك له . وليس للنّاس أجمعين أدنى نصيب من الخشية . إنّ هذا هو الّذى ينبغى أن يتحلى به البشر فكيف بسيد البشر وإمام المتقين وخاتم النبيين والمرسلين وزعيم أولى العزم من الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإنّ هذه المعانى هى الّتى بينتها وعمقتها الآية الكريمة التالية . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **الّذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلاّ الله وكفى بالله حسيباً** ﴾ .

« وروى عن على بن الحسين أنّ النبى ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أنّ زيدا يطلق زينب وأنّه يتزوّجها بتزويج الله إيّاها فلما تشكى زيد للنبى ﷺ خلق زينب وأنّها لا تطيعه ، وأعلمه أنّه يريد طلاقها ، قال له رسول الله ﷺ ، على جهة الأدب والوصيّة ، اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوّجها . وهذا هو الّذى أخفى فى نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق ، لما علم أنّه سيتزوّجها ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه . وقد أمره بطلاقها . فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشى النّاس فى شىء قد أباحه الله له . بأن قال : أمسك مع علمه بأنه يطلق . وأعلمه أنّ الله أحق بالخشية . أى فى كل حال . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية ، وهو الّذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الرّاسخين كالزّهري ، والقاضى بكر بن العلاء القشيرى[1] والقاضى أبى بكر ابن العربى وغيرهم. والمراد بقوله تعالى : وتخشى النّاس ، إنما هو إرجاف المنافقين بأنّه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوّج بزوجة ابنه »[2] .

وإنّ عتاب الله تعالى للنبى ﷺ بالقول : « **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** » متضمن للسّبب الّذى من أجله أخفى رسول الله ﷺ فى نفسه ما أوحى الله تعالى إليه به من أمر زواجه بزينب . فالّذى أخفاه المصطفى ﷺ فى نفسه سيبدو فى حينه حتما . وإنما أخفاه خشية من المنافقين الّذين عبّرت عنهم الآية الكريمة بلفظة النّاس ، وهى تشمل كلّ النّاس فاجرهم وبرّهم . وبهذا يتبين أن القول : « **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** » موطىء للقول بعد ذلك ، « **وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه** » لأنّ السّبب إذا كان قد صرح به وهو الخشية فقد لمح به من قبل فى الإشارة إلى الإخفاء . وكأننا بصدد تدرج فى الكلام ، حيث الأقوى . وممّا يعمق

---

(١) توفى سنة ٣٤٣ هـ مالكى ولى قضاء العراق .

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٧٢ وانظر الطبرى ١١/٢٢ ،والبحر المحيط ٢٣٤/٧

هذا التدرج أن الخشية الأولى مواطئة للخشية الثانية فى القول : « وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه » لأنّ الخشية من النّاس مصدرها الخوف المقرون بالنفور ، ممّا يمكن أن يتفوه به النّاس . وأمّا الخشية من الله تعالى فإنّ مصدرها الخوف المقرون بالحبّ والإكبار والإجلال والطمع فى عفو الله تعالى ومغفرته وفضله جلّ وعلا . عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً ممّا أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه.وتخشى النّاس والله أحق أن تخشاه ﴾[1] وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسول آية أشد عليه من هذه الآية[2] .

وسبق أن ألمحنا إلى السّببين الرّئيسيين اللذّين دفعا المصطفى ﷺ إلى الإخفاء فى نفسه ما أوحى الله تعالى إليه بشأن زينب . أمّا السّبب الأوّل فهو أن ما أوحى إليه من أمر زينب متعلق فى المقام الأوّل بذاته الشّريفة ﷺ . فهو ليس من باب الوحى المكلف بإبلاغه للنّاس فى هيئة القرآن الكريم أو السنة النبويّة المطهرة . والسّبب الثانى فى هيئة أنّ هذا الوحى ذاته سيتم بإرادة الله تعالى علم النّاس به وتحقيق الهدف منه ، حينما يؤوّل تطبيقاً عملياً ، فى هيئة زواج المصطفى ﷺ فعلاً من زينب رضى الله تعالى عنها بعد انقضاء عدّتها ، ووفق أمر الله تعالى له . إنّ المصطفى ﷺ حينما أوحى الله تعالى إليه من القرآن الكريم ما يعنى إبداء ذلك الوحى المسبق الّذى أخفاه المصطفى ﷺ فى نفسه وترجمته ﷺ ذلك الوحى إلى عمل،بادر المصطفى ﷺ على الفور إلى تنفيذ أمر الله تعالى « روى الأئمّة واللفظ لمسلم . عن أنس قال : لمّا انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : اذهب[3] فاذكرها علىّ . قال : فانطلق زيد حتّى أتاها وهى تخمّر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتّى ما أستطيع أن أنظر إليها[4] أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى فقلت : يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩١/٣ تفسير الطبرى ١١/٢٢ والكشاف ٥٣٩/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٧٠ و ٥٢٧١

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٧١

(٣) جملة اذهب من تفسير ابن كثير ٤٩١/٣

(٤) كان ذلك قبل نزول آية الحجاب .

بصانعة شيئاً حتّى أؤامر ربّى . فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ... »[1] أتبيّنت مدى امتثال المصطفى ﷺ لأمر ربّه جلّ وعلا . إنّه ﷺ يختار زوج زينب السّابق كى يخطبها عليه . وإنّ هذا الإجراء منه ﷺ ، بأن بعث زيداً مولاه ومتبناه من قبل وزوج زينب السّابق ليحقق الهدف الأسمى الّذى من أجله أوحى الله تعالى إليه ﷺ بأن يتزوّج مطلقة متبناه . وهذا الهدف هو القضاء على وهم العرب وعادتهم البغيضة فى إنزال الدّعى منزلة الابن الحقيقى ، وبالتالى إنزال مطلقته منزلة مطلقة الابن الحقيقى . إنّ اختيار المصطفى ﷺ ، لزيد متبناه فى هذه المهمة ، ممثل لمطلق الانقياد منه ﷺ لبارئه لأنّ الّذى يخطب زينب له ﷺ أحد أطراف المسألة التى خشى المصطفى ﷺ أن يخوض فيها المنافقون ، والّتى أراد الإسلام أن يقضى عليها قضاءً مبرما ثم إنّ اختيار زيد لهذه المهمة ، إضافة إلى الهدف الأسمى السّابق : « امتحان لزيد واختبار له حتّى يظهر صبره وانقياده وطوعه »[2] ويعلّق القرطبى على ذلك بالقول[3] : « قلت : وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علىّ فلانة لزوجه المطلقة منه ، ولا حرج فى ذلك . والله أعلم » . .

وما معنى الوطر وما معنى قضاء الوطر فى قوله تعالى : « **فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** » ؟ « الوطر كلّ حاجة للمرء له فيها همّة . والجمع الأوطار . قال ابن عبّاس : أى بلغ ما أراد من حاجته يعنى الجماع . وفيه إضمار . أى لما قضى وطره منها وطلقها زوّجناكها »[4] وقال أبو عبيدة : الوطر كالأرب . وأنشد للرّبيع ابن أصبغ :

ودّعنا قبل أن نودّعه لما قضى من شبابنا وطرا

وقال المبرد : الوطر الشهوة والمحبة . يقال :ما قضيت من لقائك وطرا أى ما استمتعت بك حتّى تشتهى نفسى . وأنشد :

وكيف ثوائى بالمدينة بعدما قضى وطرا منهاجميل بن معمر[5]

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٤ وانظر تفسير ابن كثير ٤٩١/٣

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٤

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٧٤

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٧٦ وانظر تفسير الطبرى ١١/٢٢

(٥) البحر المحيط ٢٠٨/٧

ويقول الزّمخشرى فى معنى الوطر[1] : « إذابلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة قيل : قضى منه وطره . والمعنى فلمّا لم يبق لزيد فيها حاجة ، وتقاصرت عنها همّته ،وطابت عنها نفسه ، وطلقها وانقضت عدّتها زوّجناكها » .

وانظر إلى المعنى العميق الّذى ترمى إليه الآية الكريمة والحكمة الجليلة الّتى تتوخاها من أجل التأكيد للقول السّابق فى السورة الكريمة بأنّ الدعى غير الابن الحقيقى . حينما تنص على أن زواج المصطفى ﷺ بأمر ربه ، من زينب مطلقة زيد ، إنّما كان بعد زواج حقق كل من الزوجين الهدف منه بأن اتصل به اتصالا جنسيّاً كاملا . إنّ الآية الكريمة لا تكتفى بالإشارة مثلاً إلى أنّ زيدا لما طلقها زوّجناكها ، لأنّ الطّلاق يصحّ أن يتمّ دون اتصال جنسى بل دون خلوة وبمجرد عقد النكاح . وقد أشارت الآية الكريمة التاسعة والأربعون من السّورة الكريمة إلى شيء من ذلك . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدّة تعتدونها فمتعوهن وسرّحوهن سراحا جميلا** ﴾ . إن الآية الكريمة تنصّ على هذا الاتصال الجنسى الكامل ، الّذى تمّ بين زينب وزيد ، وبعد أن طلقها زيد ، زوّج ربّ العزّة المصطفى ﷺ زينب كما جاء بذلك التصريح فى الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** ﴾ لنتدبر حكمة الله تعالى فى جعل المصطفى ﷺ هو ميدان التّطبيق العملى لتأكيد قوله تعالى فى السورة الكريمة[2] : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** ﴾ وليس أى رجل آخر من المسلمين تبنّى شخصاً كتبنّى المصطفى ﷺ زيدا . وهذا الاختيار من الله تعالى للمصطفى ﷺ كى يكون ميدان التّطبيق العملى ، دليل على تغلغل عادة التبنى وإنزال المتبنى منزلة الابن الحقيقى ، فى أحشاء المجتمع العربى الحديث عهد بجاهلية ، وعدم قدرة هذا المجتمع على التخلص سريعا من هذه المسألة ، رغم ما قد يرتبط بها من أخطار . وانظر وراء ذلك إلى امتثال المصطفى ﷺ لأمر الله تعالى له ، واختياره إياه زوجا لزينب مطلقة متبناه ، التى حينما خطبها وهى بكر بإيحاء من الله تعالى على فتاه زيد ظنت للوهلة الأولى أنّه ﷺ يريدها لنفسه ففرحت وحينما علمت أنّه ﷺ يريدها لمولاه زيد امتنعت أوّل الأمر ثمّ قبلت ورضيت

---

(١) الكشّاف ٢/٥٤١

(٢) الآية ٤

بما قبله المصطفى ﷺ ورضيه لها بإيحاء منه جلّ وعلا . والآن يزوّج ربُّ العزّة المصطفى ﷺ زينب الثيّب ولا يكون منه عليه الصّلاة والسّلام سوى الامتثال لأمر الله تعالى . « وروى عن النبى ﷺ أنّه قال لزيد : ماأجد فى نفسى أوثق منك ، فاخطب زينب على ، قال : فذهبت ووليتها ظهرى ، توقيراً للنبى ﷺ وخطبتها ففرحَتْ وقالت : ماأنا بصانعة شيئاً حتّى أؤامر[1] ربى . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . فتزوّجها النبى ﷺ ودخل بها[2] وجاء فى تفسير ابن كثير الّذى رواه الأئمة كما يقول القرطبى[3] ومنهم مسلم : « عن أنس رضى الله عنه قال : لما انقضت عدّة زينب رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها علىّ . فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتّى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إنّ رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى وقلت : يا زينب أبشرى . أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ماأنا بصانعة شيئاً حتّى أؤامر ربّى عزّ وجلّ. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم .... »[4] ويقول ابن كثير[5] : « أى لما فرغ منها وفارقها زوّجناكها . وكان الّذى ولى تزويجها منه هو الله عزّ وجلّ ، بمعنى أنّه أوحى أن يدخل عليها بلا وَلِيّ ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر » .

ولعلك تبينت جملة « فرحت » الّتى استعملت فى حق زينب رضى الله تعالى عنها حينما علمت أنه ﷺ قد ذكرها وهى التى سبق أن نزل فى شأنها قرآن يُتْلى . ولعلك تبينت كذلك جملة « أبشرى » الّتى استعملها زيد فى خطابه لزينب مطلقته وهو يخطبها على النبى ﷺ . إنّ الجوّ كله جوّ طاعة وامتثال لأوامر الله تعالى الّذى تجرى بقضائه كل الأمور . إنّ الحكمة الإلهية هى التى اختارت زيداً الشخص الكريم النبيل فتى للمصطفى ﷺ فمتبناه . ويضرب زيد المثل الأعلى فى الوفاء ومبادلته المصطفى

---

(١) أشاور
(٢) تفسير القرطبى ٥٢٧٤
(٣) تفسير القرطبى ٥٢٧٤
(٤) تفسير ابن كثير ٤٩١/٣
(٥) تفسير ابن كثير ٤٩١/٣

حبّا بحب ، حتى يلقب بحِبّ المصطفى ﷺ . وبأمر من الله تعالى يزوّجه المصطفى ﷺ زينب ابنة عمته . وبإرادة الله تعالى تستحيل العشرة ويتم الطلاق بينهما . وبإرادة الله تعالى يتزوّج المصطفى ﷺ زينب مطلقة زيد . ويكون زيد هو الرّسول الّذى يبلغها بل يبشرها أنّ المصطفى ﷺ قد ذكرها.إنّ المتدبر لسلسلة الحوادث الّتى أدّت أخيراً إلى زواجه ﷺ من زينب ، يدرك أنّ هذه الحوادث إنما تسيرها يد اللطيف الخبير الخفية . وكانت مكافأة زينب على امتثالها أوامر الله تعالى فى قبولها الزواج من زيد ، أن جعلها الله تعالى إحدى دعامات أهل البيت الّذين أذهب الله تعالى عنهم الرّجس وطهرهم تطهيرا . وكانت مكافأة زيد على صبره واحتسابه أن نزع عنه شرف انتمائه إلى المصطفى ﷺ كى ينتسب إلى أبيه الحقيقى ، أن جاء ذكره رضى الله عنه بصريح اللفظ فى القرآن الكريم .

إنّ زينب رضى الله تعالى عنها « لما وكلت أمرها إلى الله تعالى وصحّ تفويضها إليه تولى الله إنكاحها ، ولذلك قال : **فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** .. ولمّا أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ولا شيء ممّا يكون شرطا فى حقوقنا ومشروعا لنا . وهذا من خصوصياته ﷺ الّتى لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبى ﷺ وتقول : « زوّجكنّ آباؤكن وزوّجنى الله تعالى » . أخرجه النّسائى عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخر على نساء النبى ﷺ تقول : « إنّ الله عزّ وجلّ أنكحنى من السّماء » . وفيها نزلت آية الحجاب »[1] .

« وقد روى البخارى رحمه الله عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إنّ زينب بنت جحش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات »[2] « وعن محمّد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة رضى الله عنهما فقالت زينب رضى الله عنها : أنا الّتى نزل تزويجى من السّماء . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : أنا الّتى نزل عذرى من السّماء . فاعترفت لها زينب رضى الله عنها »[3] وكانت زينب زوج النبى

---

(١) تفسير القرطبى ٥٢٧٥

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩١

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩١